الثقافة

* الثقافة والهوية الثقافية
* سمات الثقافة العربية
* الأمن الثقافي العربي

بقلم:
شحادة الخوري

* الثقافة والهوية الثقافية

إن الثقافة تعني في الأصل الحذق والمهارة، والفطنة وسرعة الإدراك، وثقُف الشخص صار حاذقاً ماهراً فيما يفعل ويمارس من عمل، وتثقف الشخص: تعلم وتهذب.

هذا في المعاجم التي ترصد معاني المفردات، ولكن كلمة الثقافة قد اكتسبت، مع الزمن، والمعنى الاصطلاحي للثقافة هو الإحاطة البارعة بفروع مختلفة من المعرفة من أدب وفكر وعلم وفن ونحوها.. وقد يضيف اليها بعضهم حقل الصناعات والأدوات والمؤسسات، وبذلك يقربون معنى الثقافة من معنى الحضارة من حيث الشمول والاتساع.

إن الثقافة، بوصفها محصلة الفكر والعلم والأدب والفن لها عموميّة وخصوصيّة، هي، بعموميتها إنسانية وبخصوصيتها قومية. هي إنسانية بمعنى أنها تتجه الى كل إنسان، والبشر جميعاً متماثلون الى حدّ كبير، في تفكيرهم وعواطفهم ومشاعرهم ومتشابهون في نشاطهم العقلي والفني تشابههم في حاجاتهم وطموحاتهم وتصوراتهم.. ومن هنا كان الحوار الثقافي او التبادل الثقافي أو «المثاقفة» سعياً دائماً وجهداً مشتركاً لدى جميع الشعوب والأمم لما بين الثقافات من التأثر والتأثير ببعضها.. وهي قومية إبداعاً وإنتاجاً بمعنى أن مضامينها وأشكالها تختلف من أمة الى أمة بفعل اختلاف المكان والزمان إذ للجغرافيا والمناخ والموقع، وللتاريخ ـ أحداثه وتقلباته السياسية والاجتماعية والفكرية ـ أثر في طبيعة الثقافة وتعبيراتها المختلفة.

إن قومية الثقافة لا تناقض إنسانيتها، ولا سيما إذا كانت الثقافة منفتحة على الثقافات الاخرى.. أخذاً وعطاءً، بعيدة عن التقوقع والانغلاق. ومن

الخير للبشرية ان يكون لديها ثقافات متعددة لا ثقافة واحدة، لأن في ذلك غنىً وتنوعاً، وبعداً عن الرتابة والنمطية، ولأن ذلك يهب الثقافة الإنسانية تلوناً وتفرعاً، مثل ازهار الحقل، هما ثمرة ابداعات الفكري البشري وابتكاراته في شتى بقاع الأرض وعلى مر العصور والاحقاب.

إن الثقافة بهذا المعنى هي حق من حقوق كل أمة، وسمة من سمات ذاتيتها وهويتها ولها أن نحرص عليها كل الحرص، ونعتز بها وتفخر اذ تجد فيها صورتها ومجلى عبقريتها، وليس من حق أية أمة اخرى او جماعة او سلطة ان تحاول تبديلها أو تشويهها أو تحريفها أو إلغاءها.

ومن هنا نجد في ظاهرة «التطبيع الثقافي» ضرباً من العدوان على العرب لأنه يمس مرتكزات ثقافتهم، ويسعى لحرفها عن مقوماتها الأساسية.

وبهذا المعنى بالذات، أي الصفة القومية للثقافة والتي نعبّر عنها بالأصالة والإبداع الذاتي وهي تتنافى بل تتناقص مع التقليد والاتباع، كانت الثقافة المكوّن الرئيس للهوية الثقافية. وإذا قلنا الهوية الثقافية فإنما ندل على الشخصية بالذات: شخصية الفرد وشخصية الجماعة. ونشير الى ان الإنسان كائن متميز وأن الجماعة جماعة متميزة، وأنه لا هو ولا هي رقمٌ بين البشر جميعاً، بل هو أي الإنسان، وهي أي الجماعة نتاج طبيعي وتاريخي ذو سمات وخصائص له ما يعطيك للآخرين مثلما له أن يأخذ منهم. جاء في «الخطة الشاملة للثقافة العربية» الوثيقة المهمة التي أصدرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والتي هي حصيلة جهود ما يزيد عن ستمئة باحث عربي في ميادين الفكر والأدب والعلم والفن، ما يوضح دور الثقافة في تكوين الهوية الثقافية، ويعطي تعريفاً لهذه الهوية: «إن الثقافة القومية حق من حقوق الأمم في الحياة وثروة تضاف الى ثروات الإنسانية. والهوية الثقافية يمكن ان توصف بأنها النواة الحيّة للشخصية الفردية والجماعية، والعامل الذي يحدد السلوك ونوع القرارات والافعال الاصيلة للفرد وللجماعات، والعنصر المحرك الذي يسمح للأمة بمتابعة التطور والإبداع، مع الاحتفاظ بمكوناتها الثقافية الخاصة وميزاتها الجماعية التي تحددت بفعل التاريخ الطويل واللغة القومية والسيكولوجية المشتركة وطموحات الغد».

بَيْدَ ان الثقافة العربية التي تؤلف جوهر الذاتية العربية في الماضي والحاضر، ولهذا السبب بالذات، تعرضت لسهام أعداء الأمة العربية، مرة بعد مرة، اعتقاداً بأن النيل من العرب يبدأ بالهجوم على ثقافتهم للنيل منها، والإساءة اليهم تبدأ بالإساءة الى لغتهم التي هي مستودع ثقافتهم.

في هذا الاتجاه، انطلقت حملة الشعوبيين في العصر العباسي، وكانت حملة حاقدة شرسة، ولكنها على الرغم من ضرووراتها لم توصف قوة الثقافة العربية أو تضعف مناعتها أو تخمد وهجها إبداعاً وحيوية وعسطاء.

ومنذ بداية عصر النهضة الحديثة في القرن الماضي، ظهرت محاولات للانتقاص من التراث الثقافي العربي وعدّه عقبةً في وجه التقدم والمعاصرة. وافتنّ المزينون في الإيذاء، فتارة يدعون الى هجر اللغة العربية الى غيرها، وتارة أخرى يدعون الى إحلال العامية محل الفصحى، وحيناً آخر يدعون الى الكتابة بالحرف اللاتيني.... وظلت هذه الدعوات التي بثها أجانب وعرب على السواء أقوالاً ناشزةً لا تجد صدىً في الأسماع ولا أثراً في الواقع.

ويطلع علينا الأعداء من سنوات قليلة حتى اليوم بدعوة جديدة وسلاح

جديد هو ما اصطلح على تسميته «التطبيع الثقافي» الذي يراد به إعادة تنظيم العقل العربي ـ حسب منطقهم ـ بقلب الحقائق وتسمية الأشياء بغير أسمائها وفقاً لمصالحهم ورغباتهم: فالباطل يجب ان يكون حقاً والحق يجب ان يكون باطلاً، والإيمان بالوطن والتمسك بالارض يُعدّان تعصباً. هذا ويريدون أن نقبل الخزري صاحباً ليافا والحبشي مالكاً للناصرة، والهنغاري سيداً لبيت المقدس بل وأن نعتبر العرب الذين عمروا أرض فلسطين دهوراً دخلاء معتدين لأنهم رفضوا التخلي عن أراضيهم وبيوتهم للوافدين من شتى البقاع والجهات!!

إن عجلة التطبيع لن تمضي في سيرها، لأن التطبيع مناف للحق والمنطق والواقع والتاريخ، وهو ضلال يأباه العقل العربي، وستظل الثقافة العربية العريقة والحية والمتجددة باستمرار سياج أمتنا العربية وحصنها الحصين.

* **سمات الثقافة العربية**

لئن كانت الثقافة العربية إحدى الثقافات الكبرى التي تتشكل منها الثقافة الإنسانية الجامعة، فإن هذه الثقافة تمتلك من السمات والخصائص ما يؤكد تميزها وتفردها.

ومن أهم هذه السمات والخصائص: امتدادها في الزمان والمكان، تعبيرها عن النزعات الإنسانية: الخلقية والاجتماعية، شموليتها وانفتاحها على الثقافات الاخرى، قدرتها التعبيرية، قابليتها للتطور والتجدد.

١ ـ الامتداد في الزمان والمكان: بدأت الثقافة العربية بالتشكل في عصور مغرقة في القدم لا يستطيع احد ان يحدد تاريخاً لنشأتها. بَيْدَ أن ما وصلنا من العصر الذي سبق ظهور الإسلام والذي ندعوه «العصر الجاهلي» من روائع شعرية أهمها المعلقات السبع أو العشر. وما تبلغناه من خطب وحكَم وأمثال ليعكس لنا حالة من التطور الفكري والاجتماعي واللغوي والفني.

ولئن امتد هذا العصر نحواً من مائتي عام قبل ظهور الإسلام ووصلتنا منه مرويّات كثيرة من الشعر والنثر والقصص والاخبار، فقد سبقته قرون عديدة كانت الثقافة في جزيرة العرب ـ وأداتها اللغة العربية ـ تتشكل شيئاً فشيئاً، وتتمايز عن ثقافات الجماعات العربية التي نزحت الى مناطق الهلال الخطيب وبلاد الشام ومصر خلال فترات متعاقبة، قبل الإسلام بزمن مديد، ولم يبق لنا من مأثورات هذه الحقب الا النزر اليسير.

ثم جاء الاسلام فأغنى الثقافة العربية بالقيم والمعاني السامية ومكّنها من الاستمرار من بداية ظهوره حتى اليوم، متزلقة في عصر النهضة العربية الأولى، متراجعة في عصر الخمود والانحطاط، متيقظة واعدة في عصر النهضة الحديثة.

أما من حيث المكان، فقد حملت الفتوح والانتصارات الثقافة العربية بعيداً عن مراكز الحكم وعواصم الدولة العربية في المدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة الى بلاد الاندلس في شبه الجزيرة الايبيرية غرباً وبلاد السند شرقا اي انها عمّت العالم المتمدن آنذاك ـ وأينعت ثمراتها في القلب والأطراف على السواء من بغداد وسمرقند وهمذان الى القاهرة ومراكش وقرطبة واشبيلية... وتلك آثارها باقيات خالدات.

٢ ـ المنحى الإنساني: كانت الثقافة العربية، منذ البداية، تتسم بروح إنسانية ـ خلقية واجتماعية ـ سامية، تجلت في أقوال العرب وأفعالهم في الجاهلية.

فالحب أروع مايصل إنساناً بإنسان، والشجاعة ـ بذل النفس دفاعاً عن الدار وذوداً عن الارض والعرض ـ والكرم ـ بذل المال ـ لسمعة تطلب وشرف يرغب ـ والايثار والشهامة والمروءة ونصرة الجار والضعيف والمظلوم وإغاثة الملهوف. وبعد ذلك أعطى الإسلام لهذا المنحى أبعاداً جديدة مثل الايمان بالخالق والتسليم له وتكريم الإنسان وإكرام الوالدين والتمسك بقيم الحق والعدالة والمساواة والرخاء وحب المعرفة وطلبها بأي سبيل، مؤكداً بذلك على أسمى القيم التي جاءت بها الأديان قبله والمبادىء الخلقية التي دعا اليها الفلاسفة والحكماء.

٣ ـ الشمول والانفتاح: إذا كان الطابع الأدبي قد غلب على الثقافة العربية في الجاهلية، بسبب ظروف العرب المعيشية إذ كانوا قبائل، في غالبيتهم، ينتقلون من مكان لآخر، في طلب الماء والكلأ، وبعضهم يعيش في دويلات ضعيفة تابعة تفتقر الى الاستقلال والاستقرار كدولة غسان في الشام الخاضعة لنفوذ الروم ودولة المناذرة في العراق الخاضعة لنفوذ الفرس، فإن نشوء الدولة العربية الإسلامية قد هيأ الظروف لقيام ثقافة واسعة شملت الآداب والعلوم والفنون على اختلاف أنواعها، وتجلّت في الفقه والتشريع وطرائق التفكير والتقاليد الاجتماعية.

والى جانب ذلك اتصلت الثقافة العربية بالثقافات السائدة في ذلك الحين فلم تقف منها موقف الرفض والانكماش بل فتحت صدرها وذراعيها لحكمة الهند وحسابها وآداب الفرس ونظمها وفلسفات اليونان وعلومهم، فاقتبست عن اقتدار وتمثلت المعرفة البشرية لتصوغها من جديد بلغتها وتغذيها وتُغنيها بعبقريتها.

وجدير بالذكر ان الثقافة العربية قد احترمت الفكر أنّى كان مأتاه، فدعت ارسطو المعلم الأول تكريماً له وذكرت افلاطون وجالينوس وإقليدس بكل تَجِلّة واحترام.

وتمر الأيام فإذا بالثقافة العربية الإسلامية، وقد نضجت وأعطى ثمراتها، تنتقل بكل غناها وتنوعها الى أهل الشرق والغرب.

٤ ـ القدرة على التعبير: تُعدُ اللغة العربية أكمل اللغات السامية بناءً وأغناها لفظاً وأقواها تركيباً وأجملها تعبيراً وأدقها دلالة على دقائق الطبيعة وخفايا النفس... إن هذه اللغة كان الوعاء الذي اتسع للثقافة العربية وما نقل اليها من تراث الامم السابق، العلمي والادبي، والأداة التي عبّر بها العرب عن مقاصدهم في عصر الازدهار الذي امتد اربعة قرون. وقد كان للقرآن الكريم على هذه اللغة، فضل كبير اذ وحدّ لهجاتها وأغناها بمعانيه ويسّر لها سبيل الذيوع في أرجاءالارض. ولم تعجز العربية يوماً عن الإيفاء بمتطلبات الفكر، لا في عصر النهضة الأولى في القرنين الثامن والتاسع للميلاد، ولا في عصر النهضة الثانية التي بدأت منذ قرنين ومازلنا نشهدها اليوم، إذ تمكن أهلها العارفون بها من توليد الألفاظ الجديدة بطرائق تأتلف مع طبيعتها الاشتقاق الذي تعين عليه العربية فالمجاز والتعريب والنحت.

وقد اقرّ العالم بأسره بدور اللغة العربية في رفد الثقافة الإنسانية، واعترفت الأمم المتحدة بها لغة رسمية الى جانب خمس لغات أخرى في العالم.

٥ ـ قابلية التطور والتجدد: لقد عرف العالم ثقافات عديدة تألقت مدة من الزمن ثم تضاءل دورها وجفّ عطاؤها فبادت وانقرضت، ولكن الثقافة العربية مازالت منذ وجدت في تفاعل دائم مع الحياة والثقافات الاخرى.

لقد كانت الثقافة العربية قابلة

للنمو والتطور والتجدد، إذ أنها استطاعت عند مواجهة علوم الاقدمين في القرنين الثامن والتاسع ان تستوعب وتتمثل تلك العلوم التي ترجمت اليها، وكذلك استطاعت ان تستوعب علوم المحدثين في القرنين التاسع عشر والعشرين، وتتمثلها فتغدو هذه العلوم، بعد تعريبها ـ والتعريب هنا بمعنى الترجمة المحكمة ـ من مشمولاتها وتدخل نسيجها الفاعل الحيّ.

وما أكثر الشواهد على مواكبة الثقافة العربية التطور الحضاري في هذا العصر الذي يسمى بحق «عصر التفجر المعرفي» وعصر الثوة العلمية والثقافية (التكنولوجية). فثمة جامعات عربية عديدة تدرس جميع العلوم المعاصرة وتجري بحوثها العلمية باللغة العربية، كما تدرس هذه اللغة في أعظم جامعات الغرب والشرق، وتُنْقَل إبداعات مفكريها وأدبائها الى العديد من لغات العالم.

إن الثقافة تعبير عن وجود الأمة ومرآة لحيويتها وقدرتها على مسايرة التطور ومواجهة الجديد، وقد اثبتت الثقافة العربية في الماضي وتثبت اليوم قابليتها للتطور والتجدد.

*** الأمن الثقافي العربي**

من التعابير التي شاعت في العقود الاخيرة من هذاالقرن وتداولها رجال الفكر والسياسة والاجتماع، تعبير «الأمن» بمعانيه وصوره المتعددة، ذلك أن الزمن من الأمان، والأمان بكل وجوهه مطلب حيوي للإنسان، في كل زمان ومكان، وزواله يحمل أخطار العبودية والانسحاق والفناء، للفرد والجماعة على السواء، والأمن في أدنى درجاته يعني الطمأنينةوالراحة والسكون وفقده يعني الخوف والقلق والاضطراب.

ولقد كانت لفظة الأمن ، قبل ذلك ، تحمل معنىً سياسياً أي أن يكون الإنسان في مأمن ومنجى من العدوان، ومن هنا جاءت تسمية الهيئة التي أوجدتها الأمم المتحدة لتعنى بشؤون السلم والحرب والنظر في النزاعات الدولية التي تهدد السلم واتخاذ القرارات والتدابير اللازمة لوقف العمليات الحربية والقتالية «مجلس الأمن الدولي».

ولكن ليس ما يشغل بال الإنسان ويقلقه عدوان خارجي يقع على بلده ويعرّض الناس للقتل، ولا فوضى داخلية تخترق النظام العام وينفذ فيها العابثون الى إلحاق الأذى بحياة المواطنين وأملاكهم وأموالهم فحسب، بل يشغل باله ويقلقه، وإن بدرجة أقل، أن يحلق بالحياة الاقتصادية أو الاجتماعية او الثقافية في بلده سوء أو خلل فيصاب الناس بموارد رزقهم ويتعرضون للبطالة والفقر أو تصيب مجتمعهم آفات تعكر صفوهم وتشتت جمعهم وتنزع ثقتهم ببعضها وتزعزع الروابط الأسرية أو تقع على ثقافتهم من معتقدات وقيم وآداب انحرافات تجعلهم يتنكرون لتراثهم ويشكون في مستقبلهم ويفرون من واقعهم ويتسلط على نفوسهم اليأس ويفقدون جذوة الأمل التي تشدُّ العزيمة وتغذي القدرة على الفعل والإبداع.

ولكن هل تعرضت أو تتعرض الثقافة العربية لخطر ما، في هذا العصر، كيما نلتمس السبل لدرئه حرصاً على أمننا الثقافي، وعلى سلامة ثقافتنا التي هي جوهر شخصيتنا وهويتنا القومية؟ الحق أن الثقافة العربية تواجه منذ فجر النهضة العربية الحديثة خطر الاختراق او الاستلاب بله الإبادة، بدءاً بمحاولة الدعوة الى هجر العربية او هجر كتابتها أو تفتيتها الى عاميات ولهجات قطرية وانتهاءً بالتطبيع الثقافي الذي يعني جعل العقل العربي يتخلى عن ثوابته

ويرى في الحقائق أباطيل وفي الأباطيل حقائق...

إن الهيمنة السياسية التي بسطها الغرب على بلدان الوطن العربي بداية من حملة نابليون على مصر والتي تنوعت صورها وأشكالها من احتلال الى حماية الى انتداب الى احلاف، والتي مهدت لها الطريق ظلامية الحكم العثماني الذي أوقع هذه البلدان فريسة الضعف والجهل والفقر، قد رافقتها مساعٍ حثيثة لفرض هيمنة ثقافية تضعف النفس العربية وتردُّها عن مقاومة الظلم والعدوان وتسلبها قوتها ومناعتها، وبذلك يرسخ النفوذ السياسي للغرب ويسهل استغلاله الاقتصادي لموارد البلاد وجهود ابنائها.

ولعل مما يسّر للهيمنة الثقافية الاجنبية الغازية أن تحرز بعض النجاح الذي من مظاهره الانبهار بمنجزات الدول المتقدمة والقعود عن مجاراتها، والتهالك على منتجات الحضارة الغربية لاستخدامها دون التفكير الجادّ بانتاج مثيلاتها، والاتباع والتقليد في العادات وأشكال السلوك دون تبصّر أو مواءمة مع الواقع ، واستخدام اللغة الاجنبية في التعليم العلمي عن قدرة اللغة العربية على استيعاب كل علوم العصر ومعارفه، أن الثقافة الغازية أكثر عصرية من الثقافة العربية، وتتميز بسبق ظاهر في مختلف مجالات العلوم الاساسية والتطبيقية والاجتماعية والانسانية، سبق حققته بداية من عصر النهضة الأوروبية حتى اليوم، في وقت لم يكن العرب يملكون حرية الحركة والقرار، وكانت الثقافة العربية مقيدة، محاصرة، مجمدة، حبيسة الحكم العثماني القاصر والمتخلف.

ومما زاد الامر صعوبة في نصف القرن الاخير، التطور الهائل الذي أحرزه الغرب في مجال الاتصالات والإعلام من شبكات للبث الإذاعي والتلفزي وأفلام تعرض في السينما أو الفيديو، وأدب غالبه تغمره الأنانية والاستعلاء وفنون يشوبها الإبهام والتحلل من المقاييس الجمالية التي ترتضيها الاذواق، وتسخير ذلك كله لأغراض الربح حتى صارت الثقافة سلعة تحدد مواصفاتها ربحيتها بصرف النظر عن المعايير الاجتماعية والخلقية... وهكذا يوظف (التطور العلمي والتقني والثقافي (التكنولوجي) لأغراض سياسية وتجارية، ويهدف في جملة ما يهدف الى تنميط الثقافة العربية وثقافات شعوب بلدان العالم الثالث وفق الأنموذج الغربي للثقافة وهندسة عقول العرب وغيرها من أبناء البلدان النامية وفق المخطط المرسوم الواقف لمصالح الغرب.

وهكذا يزول حتى كل شعب من الشعوب بل كل فرد من الافراد في امتلاك ثقافته، الموروثة والراهنة، مثلما يزول حقه في الحرية والاستقلال والإفادة من موارد بلاده وجهود أبنائه.. وحقه في اتخاذ القرار وصنع المستقبل الذي يشاء.

إن هذه الظاهرة ليست مناخية للقوانين والاتفاقات الدولية التي تنص على حقوق متساوية وعلاقات عدالة بين الافراد والدول، بل تناقض الحقوق الطبيعية لبني البشر في أن يعيشوا احراراً متساوين موفوري الكرامة.

إن الثقافة ليست وصفة تشترى لعلات ـ ولا لباساً يستورد فيلبس ولا منحة يعطيها قوي لضعيف، بل هي نتاج تاريخي لأمة من الأمم وتراكم ثمرات عبقريات أبنائها على مدى أجيال، وسلسلة تتكون حلقاتها مع الزمن فإذا بها قيم يتمسك بها وآداب وفنون فيها رائحة الأرض التي نبتت فيها وعرق الإنسان الذي صاغها، ومعارف عقلية وتقاليد شعبية وحرف فنية وعادات تؤطر أفراح

الناس وأتراحهم وخيالات تسكن خواطر الشعراء وأحلام الفرسان والعشقي... فكيف يراد لمئات الشعوب والجماعات في أسيا المترامية الأطراف وافريقيا المتوهجة بالشمس، والعرب هنا وهناك أن يتخلوا عن جلودهم وخلايا أجسادهم ويتقبلوا طلاءً غريباً لم يألفوه صنيع من يضعون على وجوههم أقنعة تبعث على الهزء والسخرية.

هنا يغدو الزمن الثقافي، شأنه شأن الزمن السياسي والاقتصادي والاجتماعي، جزءاً لا يتجزأ من الأمن القومي، ويصبح عنصراً أساسياً في بقاء الأمة ووجودها، فيكف نحافظ عليه من الاستلاب أو الذوبان والضياع؟

إن المحافظة على الأمن الثقافي لا يكون بالانكماش والانغلاق والانطواء على الذات وسدّ طرق الاتصال والحوار مع «الغير»، لأن هذا الاتصال والحوار صار جزءاً لا يتجزأ من حضارة هذا العصر الذي تشابكت فيه الصالح والعلاقات بين الدول والشعوب، بل نعتقد ان المحافظة عليه تقوم على أمرين أولهما سلبي والثاني إيجابي:

١ ـ مقاومة كل محاولة لتشويه الثقافة العربية وطمس معالمها والانتقاص من مزاياها. وهذه المقاومة ينبغي أن تكون مقاومة واعية تعرف ما ينبغي قبوله واقتباسه عن الثقافات الاخرى، ولا سيما الثقافات المتقدمة في ميادين العمل والتقنية، وبين ما يجب ردّه ورفضه لتعارضه مع مقومات ثقافتنا ومع حبنا لتراثنا واعتزازنا به.

إن مقاومة الغزو الثقافي لا تتعارض مع المثاقفة المتكافئة ولا مع الاقتباس النافع ولا مع الحوار النديّ، بل تعني رفض كل مسعى يقوم به «الغير» للنيل من ثوابتنا وإنكار أصالتنا الثقافية والتشكيك بقدرتنا على التطور الحضاري والثقافي من منطلق القدرة الذاتية على الفعل والابداع.

٢ ـ تنمية ثقافاتنا القومية من سائر جوانبها: العلمية والادبية والفنية والخلقية والسلوكية بما يتلاءم مع مقتضيات العصر، وذلك بتنشيط الإبداع الأدبي والفني والبحث العلمي، وكشف الجوانب النيرة في تراثنا الثقافي وتحقيقه وشرحه ونقله الى اللغات الاجنبية الاكثر انتشاراً في العالم...والإقبال على العلوم النظرية والتطبيقية وشتى فروع الثقافة (التكنولوجيا) والتقنية لا بشراء مفرزاتها ومنتجاتها ومصنوعاتها بل بصنعها بإتقان كيما نكون في هذا الميدان منتجين لامستهلكين.

هذا وينبغي ان نبذل للغتنا العربية المجيدة العناية الفائقة لنمكنها من استيعاب علوم العصر وفنونه وذلك بالدراسات اللغوية المفيدة وتحسين طرائق تدريسها وإيجاد المصطلحات وفق القواعد السليمة وتنسيقها بين البلدان العربية وتوحيدها وووضع المعاجم العامة العربية وثنائية اللغة والمعاجم المتخصصة والى غير ذلك من وجوه الخدمة اللغوية.

إن الثقافة القوية الغازية تلغي ثقافة قاصرة، عاجزة، جامدة، ليس من يعنى بتطويرها وتنميتها، ولكنها لا تلغي ثقافة حيّة تغتذي لتقوى، وتقوى لتزهر وتثمر، ترفض الضار الرديء وتقبل الجيد النافع، وتحصن نفسها بمواجهة الصعوبات والتغلب عليها لا بالهرب منها.

إن من آثر الراحة ولبس قميصاً لم ينسجه وأكل رغيفاً لم يخبزه فإنه كمن ربح العالم وخسر نفسه،وحاشا لأمة ذات أصالة،جذورها ضاربة في أعماق التاريخ، وآمالها أوسع من المستقبل أن ترضى بهذا المآل.

قراءة نقدية

في مجموعة قصصية

الأطفال والشيوخ في ظلال عريشة الياسمين

دراسة:
فواز حجّو

«عريشة الياسمين» هي المجموعة القصصية الرابعة للدكتور أحمد زياد محبك، وقد صدرت أواخر عام ١٩٩٦ عن دار القلم العربي بحلب، وتقع في مئتين وست وخمسين صفحة من القطع المتوسط وتضم عشرين قصة، ومجموعاته القصصية السابقة هي «يوم لرجل واحد» (١٩٨٦) و (حجارة أرضنا) (١٩٨٩) و (حلم الأجفان المطبقة) (١٩٩٦) وتدور معظم قصص المجموعة الجديدة حول الأطفال والشيوخ، فقد كانت القصص الأولى في المجموعة حول الطفولة وكانت القصص الاخيرة حول الشيخوخة، وكأن المجموعة اتبعت هذا الترتيب عن عمد، ويؤكد ذلك أن القصة الاخيرة في المجموعة هي امتداد للقصة الثانية فيها.

وتحمل القصة الثانية عنوان المجموعة نفسها، وهو عريشة الياسمين، وهي تقدم لنا حكاية طفل وطفلة، هما أحمد وسناء، وهما ولدان لأسرتين متجاورتين، بينهما الود والصداقة والعلاقات الإنسانية الجميلة، وتحت ظلال عريشة الياسمين يلعبان بكرة المضرب، وكل منهما ينعم بالعيش في دار عربية مفتوحة ذات فناء واسع فيها بركة تحيط بها أصص الزهر، وتظللها عريشة الياسمين.

وتحمل القصة الأخيرة عنواناً هو: «عريشة في شرفة ضيقة»، وفيها يظهر عجوز في الخمسين، محال الى التقاعد وهو يقعد في شرفة ضيقة، لا تكاد تتسع لغير كرسي واحد، وزوجته تعدّ له فنجان قهوة، والشارع يضج بزعيق السيارات، والى جواره في الشرفة عريشة ياسمين عجفاء.

ثم نعلم أن هذا الرجل ما هو إلا ذلك الطفل أحمد، وما الزوجة إلا تلك الطفلة سناء، وقد مر عليهما ردح من العمر، وقد حملا معهما شجرة الياسمين من الدار العربية المفتوحة القديمة إلى الدار ذات الطراز الغربي الطابقي المغلقة.

والقصتان تعدان ثنائية، تكمل

إحداهما الأخرى وهما تظهران المفارقة الكبيرة بين حياة طفولية قديمة بريئة، وحياة متقدمة معقدة تغيب عنها العلاقات الإنسانية.

ففي القصة الأولى هناك علاقات جوار جميلة وطيبة بين أسرة سناء وأسرة احمد، هي العلاقات التي تقود الى تعارف الطفلين ونشوء علاقة حب بنيهما، والى زواجهما، على حين نجد سناء في القصة الاخيرة وقد اصبحت متقدمة في العمر، وزوجة وأما، وهي لا تقيم علاقات جوار جيدة مع جاراتها، بل إنها ترفض ان تمنح جارتها قليلاً من البهار.

ولكن الكاتب لا يعدم قدراً من التفاؤل، إذ تظهر في نهاية القصة الثانية ابنة الزوجين، وهي صبية شابة، ترجع من الجامعة، حاملة لأبيها الراتب التقاعدي الذي أعطاها إياه جارهم في البناء، ثم تحمل بالمقابل قليلاً من البهار الى جارتها، وتعود لتجد في عريشة الياسمين العجفاء زهرة ياسمين واحدة متفتحة، فتقطفها لتضعها في شعر أمها، ويرى والدها فيها ملامح من أمها يوم كانت طفلة ويوم كانا جارين صغيرين.

إن القصتين تؤكدان تعلق الإنسان بقيم الحب والجمال والنقاء والخير، وتربط بين القصتين شجيرة الياسمين الجميلة التي تقاوم ضيق المكان ودخان السيارات، وتأبى إلا أن تمنح زهرها، وهي تظلل الإنسان في شيخوخته، مثلما ظللته في طفولته.

إن شجرة الياسمين هي رمز لتعلق الإنسان بالحرية والطبيعة والفطرة الأولية ورفض المدينة الخانقة.

وهناك ظاهرة فنية اخرى في المجموعة، وهي ترابط ثلاث قصص منها، ودورانها جميعاً حول شخصية واحدة، هي شخصية الطفل الذي يعيش طفولته في دار عربية ذات فناء واسع وجميل.

إن الطفل الذي ظهر في القصة الثانية وهو يلعب مع سناء ابنة الجيران تحت عريشة الياسمين، يظهر في القصة الثالثة وعنوانها: «بديعة»، وقد غابت عنه ابنة الجيران سناء، إذ ذهبت في إجازة الصيف في زيارة الى عمة لها في الريف، وظل احمد وحده، يعاني من غياب رفيقته، ويحس بالوحدة والوحشة، ولكن يصادف أن ينزل في الدار المقابلة جيران جدد، ولديهم ابنة تكبر أحمد بسنتين أو ثلاث سنوات، ويظهر ميلها إليه ورغبتها في ملاعبته وزيارته، وكأنها تحل محل «سناء» الغائبة، واسم هذه الفتاة «بديعة»، وهي أكبر من سناء عمراً وأكثر منها ومن أحمد نضجاً وتفتحاً، وتبدو رمزاً لعلاقات اجتماعية جديدة، يتردد أحمد في إقامتها مع بديعة ويخشاها، وإن كان لديه نزوع غريب نحوها، وما تلبث سناء أن ترجع من إجازة الصيف لتشعر بالغيرة من بديعة.

والجميل في القصة هو عودة سناء حاملةً زوجين من الحمام لأحمد هدية، وسرعان ما يظهر ميل أحمد الأقوى والأعمق الى سناء، ويمضي معها في نهاية القصة ليرشا معاً الحبَّ لزَوْجَي الحمام.

وفي القصة الرابعة وعنوانها «أم خالد والكناري» يظهر الطفل نفسه تحت اسم عماد وهو يمضي مع جدته في زيارة الى إحدى الجارات، ودارها واسعة ايضاً وجميلة وفيها بركة ماء تحيط بها أصص الزهر وتظللها عريشة الياسمين.

ويستمتع الطفل عماد بالخضرة اليانعة والزهور المتفتحة في فناء الدار، ولكن أم خالد تأبى إلا أن يقعد مع جدته بضيافتها في غرفة مغلقة، ولا تسمح له أن يطل من نافذتها على الزقاق، وهي غرفة مرتبة أحسن ترتيب هادئة جداً، لا تسمح أم خالد للهواء أن يدخل إليها.

وبينما تنعم أم خالد باحتساء القهوة مع جدته، يحس الطفل عماد بالاختناق داخل تلك الغرفة، ويفتعل حاجته الى التبول، كي يخرج الى فناء الدار، وهناك يحاول الوصول الى قفص الكناري المعلق فوق الدرج، ولكنه يسقط

ويسقط معه القفص، ويشج رأسه، وعندئذ تسرع جدته الى العناية به، وتخرج أم خالد عن بخلها، فتعنى بعماد وتقدم له باقة زهر وتزوره في اليوم التالي حاملة اليه القفص والعصفور هدية.

إن القصص الثلاث تتدرج مع الطفل أحمد في تتبع مراحل عيه وإحساسه بالعالم من حوله، ففي القصة الأولى، «عريشة الياسمين» يحس بجمال الزهور والبركة وفناء الدار من حوله، ويشعر بميل طفولي بريء نحو سناء، وهو في القصة الثانية: «بديعة» يتفتح وعيه، وتنضج رغباته لدى ظهور ابنة الجيران بديعة، وهو يحس نحوها بميل غريب لا يدرك حقيقته، وفي القصة الثالثة تظهر حاجته الى الحرية ورغبته في الانطلاق.

إن هذه القصص الثلاث تعد قصة واحدة ذات ثلاثة مفاصل، وهي تدل على روح روائي لدى الكاتب، وهي لا تتحد في البطل فقط، بل تتحد في الزمان والمكان اذ يوحدها عمر الطفل الذي لم يتجاوز في القصص الثلاث المرحلة الابتدائية، كما يوحدها المكان، وهو الدار العربية ذات الفناء الواسع المكشوف والمملوء بالبركة وشجرة التوت وعريشة الياسمين وأصص الزهر، وهذه الدار في القصص الثلاث هي رمز للطفولة وبراءتها من جهة، وللماضي من جهة اخرى بما فيه من علاقات جوار طيبة في الاحياء الشعبية القديمة

ولقد كانت القصص الثلاث مجالاً رحباً لوصف الدار العربية القديمة الجميلة التي تكاد تشبه الجنة بمائها وزهرها وشجرها وطيرها، والتي استطاع ساكن المدينة أن يجعل داره فيها محافظة على جمال الطبيعة بما ملأ به تلك الدار من زهر وعرائش.

وإذا ما انتقلنا الى سن الشيخوخة وجدنا عدة قصص ترصد الأحاسيس والمشاعر في مثل هذا العمر، من خلال لقطات ومواقف انسانية مملوءة بالحياة تدل في معظمها على القوة والتفاؤل والتعلق بالحياة على الرغم من تقدم العمر.

ويظهر ذلك واضحاً في قصة «الثلج وزجاجة العطر»، وفيها يظهر شيخ عجوز يصر على الخروج من بيته على الرغم من البرد الشديد والثلج المنهمر، ويمضي الى المصرف لا ليقبض راتبه التقاعدي فحسب، وهو ليس بحاجة اليه، وإنما لينعم بلقاء تلك الموظفة الشابة التي يلتقيها في مطلع كل شهر، فيأنس بها وبحديثها، ويرجع مزوّداً بدفقة كبيرة من القوة والحياة.

وهو يمضي إليها هذا اليوم على الرغم من البرد الشديد، حاملاً لها في جيب معطفه زجاجة عطر هدية، حالما بلقائها، وبفنجان قهوة خاص يحتسيه بضيافتها، ويدخل المصرف، فيفاجأ بها تتحدث في مكتبها الى شيخ عجوز مثله، وهي تضاحك هذا العجوز وتمازحه، فيشعر بصدمة غريبة، اذا كان يتوهم انه هو وحده الأثير لديها، ثم يشعر بصدمة أكبر عندما تحدثه عن جدّها العجوز، الذي كانت تحبه كثيراً، وقد مات منذ بضع سنوات، وهي تقدّر لأجله العجائز كلهم، وعندئذ يدرك هذاالعجوز حقيقته، ويتردد في تقديم زجاجة العطر، ولكنه يقدمها لها أخيراً، ويخرج من المصرف وهو يفكر بتوكيل ابنه ليقبض الراتب الشهري بعد ذلك بدلاً منه، ولكنه سرعان ما يقلع عن تلك الفكرة، ويقرر أن يأتي كل شهر ليقبض راتبه بنفسه.

إن القصة تؤكد قوة الحياة لدى ذلك الشيخ العجوز، وتظهر تعلقه بكل ما يربطه بالحياة، وهي ترصد مشاعره وانفعالاته من خلال مواقفه وتصرفاته، وتقدمه بأسلوب مسرحي واضح، عماده الموقف والحوار بعيداً عن التحليل أوالوصف.

وما تمتاز به قصص المجموعة هو نقل الانفعال والمشاعر من خلال الموقف والصورة والحركة، وليس من خلال الشرح

أو التحليل، بأسلوب المصور ومن ذلك شعور الشيخ العجوز بالخيبة، وهو يرى الفتاة الصبية تتحدث الى شيخ عجوز أخر، ويتجلى هذاالشعور في الموقف التالي:

«يراها وهي تحدّث شيخاً عجوزاً، في مثل عمره، يقف، قبضة يده ترتخي عن الهدية الصغيرة، تسقط في قاع جيب المعطف، يحس بماء ساخن، بل بزيت مغلي قد صب فوقه، تودع الشيخ العجوز، تدخل الى مكتبها، يمسح العرق عن جبينه، يرفع اللفاعة عن عنقه، يفك أزرار معطفه، ويمضي الى مكتبها، يمشي الهوينى».

إن الأفعال المتتابعة تدل على مدى قلق العجوز واضطرابه، وهي أفعال مضارعة، توحي بالحركة الانفعالية، وتدل على مشاعر داخلية، كا تضع القارىء داخل الحالة، تنقله الى عمق الحدث، كما أن ارتخاء أصابع العجوز عن الهدية، وسقوطها في قاع جيبه، هو معادل موضوعي يمثل خيبته، وسقوط مشاعره.

ولكن لا بد من الاشارة الى أن قصص المجموعة كلها لا تحدّد المكان، ولا تعين الزمان، فهي لا تذكر اسم اي مدينة، أو حي، أو شارع، كما لا تشير الى أي عهد أو مرحلة أو تاريخ، على الرغم من عناية الكاتب بتصوير المكان، واهتمامه بالأماكن الشعبية القدمة، وعلى الرغم من حرصه على وحدة الزمان، الذي هو في معظم القصص لحظة هاربة من الزمان، تتأجج فيها المشاعر، وتتقاطع فيها المواقف، وفي معظم الحالات لا يكاد يبلغ أربعاً وعشرين ساعة.

ومعظم شخصيات المجموعة متميزة بحدّة انفعالها، وطرافة مواقفها، ووضوح ملامحها الشخصية، وهي تمتلك أبعادها الإنسانية، وتتصرف غالباً وفق أهوائها وانفعالاتها، ولا تبدو خاضعة لسيطرة المؤلف، ويتضح ذلك جلياً في نهايات القصص التي هي في معظمها أيضاً نهايات مدهشة مفاجئة تتفق وطبيعة الشخصيات، كما تتفق مع أهوائها وانفعالاتها.

ويعتمد الكاتب في معظم القصص على الحوار وهو حوار موجز ومكثف، مكتوب بالفصحى المبسطة، ويعبر عن طبيعة الشخصية ويساعد في كثير من الحالات على تطوير الحوادث، ودفع القصة ومنحها الحركة والحيوية.

كما يعتمد الكاتب في مواضع كثيرة على المنولوج، ويطغى على بعضها ومن ذلك مثلاً القصة الأولى في المجموعة، وعنوانها: «كيف لي أن أراك؟»، وهي متوبة بأسلوب المنولوج، وتعد في الواقع قصة تجريبية فيها مغامر واضحة، وقد لا تتحقق فيها شروط القصة التقليدية، ولكنها تظل نصاً أدبياً فيه شيء من الشعر وشيء من القصة، وافتتاح المجموعة بها يكاد يعد نوعاً من الاستهلال أكثر مما يعد قصة قصيرة.

وإلى هذا النوع من المغامرة تنتمي قصة عنوانها: «مشروع قصيدة» وهي محاولة تجريبية تعتمد على الرمز، اذ تلخص في يوم واحد حياة رجل من الولادة الى الطفولة الى الدراسة الى العمل الى الزواج والانجاب الى الموت، متخذة من كل ساعة من ساعات اليوم رمزاً الى مرحلة من مراحل حياة كاملة، في تكثيف شديد وتتابع سريع، وهذه القصة لا تختلف عن سائر قصص المجموعة في دفاعها عن البراءة والحرية، وإن اختلفت عنها في التقنية الفنية، وهي بهذا الاختلاف تمنح المجموعة ضرباً من التنوع الفني.

تلك هي بعض المواقف والقضايا في مجموعة «عريشة الياسمين» القصصية، وهي تدل على امتلاك المجموعة ملامحها الشخصية الخاصة بها ولعل هذا أقصى ما يطمح اليه كل كاتب، كما تدل المجموعة على تطور ملحوظ في النتاج القصصي للدكتور محبك، ولعل أهم ملامح هذا التطور الميل الى الايجاز والتكثيف والاعتماد على الصورة والحركة بدلاً من التحليل.

وتبقى في المجموعة جوانب اخرى جديرة بالدرس، وما هذه القراءة النقدية الا محاولة للاقتراب من «عريشة الياسمين»، والعيش لبعض الوقت في ظلالها الشذية.

وقفة مع قصيدة

عبد المعين الملوحي
يرثي نفسه

بقلم:
الياس قطريب

تُذكّرنا قصيدة (عبد المعين الملوحي يرثي نفسه) بطائفة من شعرائنا القدماء، الذين رثوا أنفسهم حين أحسوا بدنّو أجلهم واقتراب نهايتهم. فجاءت قصائدهم لتعبر عما خالج نفوسهم من مشاعر وأحاسيس، وهم يعيشون الساعات الاخيرة من حياتهم، ولتفصح عن الافكار والهواجس والخواطر التي انتابتهم، وهم على وشك ان يفارقوا الحياة.

ولعلّ وحدة التجربة الشعورية التي مرّ بها هؤلاء الشعراء أوجدت بعض القواسم المشتركة في قصائدهم، من ذلك مثلاً ما يخيّم على أجواء هذه القصائد من حدّة الشعور بالغربة والقلق إزاء النهاية المحزنة، وما يشيع فيها من مشاعر الرهبة والخوف من المجهول، وما يقابل ذلك من حنين جارف الى الماضي، تجلّى في استحضاره واستعراض الجوانب المشرقة منه كتعويض عن بؤس الحاضر وانطفاء المستقبل. ولكنْ يبقى لكل شاعر خصوصيته وطريقته الفنية في التعبير عن تجربته.

ومن الطريف ان الأديب عبد المعين الملوحي صنّف كتاباً بعنوان (الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت)، جمع فيه عدداً من القصائد لشعراء عرب رثوا أنفسهم قبل الموت. ويتضح من المقدمة أن الملوحي صنّف هذا الكتاب بعد أن نظم قصيدته في رثاء نفسه. وكان من بين الشعراء الذين ذكرهم في كتابه، الشاعر مالك بن الريب، وقد تعمدتُ ذكره لسببين، الأول لاشتهار هذا الشاعر بقصيدته التي قالها في رثاء نفسه، والتي أجمع النقاد والدارسون، قديماً وحديثاً، على أنها من أجمل وأجود ما قيل في رثاء

النفس، ولا أعتقد ان هناك أديباً لم يطّلع على هذه القصيدة، أولا يحفظ بعضاً من أبياتها. والسبب الثاني هو تأثر الملوحي - حين نظم قصيدته - بقصيدة مالك، وهذا ما سنتحدث عنه بعد قليل.

صدرت قصيدة (عبد المعين الملوحي يرثي نفسه) عن دار مجلة الثقافة عام ١٩٨٤ في مئة وسبعة وستين بيتاً. وطول القصيدة يكشف عن شاعرية ثرّة، وتمكّن من اللغة، ونَفَس شعري متميز، كما أنّ هذا الطول لم يؤثر في بنائها الغني، فلا يكاد المرء يعثر على بيت مهلهل النسج أو ركيك النظم. فقد جاءت القصيدة ضمن بناء فني متماسك، ورباط نفسي جمع بين أبياتها في تلاحم عضوي محكم.

ويبدو تأثر الملوحي بقصيدة مالك بن الريب بشكل جلي في اختياره الموزن الشعري والقافية، وفي تضمين قصيدته بعض الاشطر من قصيدة مالك. ولكنّ ذلك لا يعني أن الملوحي حاول ان يعارض قصيدة مالك، أو أن يقلدها، فهو أجلّ من ذلك وأبعد، وخاصة في مثل هذا الشعر الذي يتطلب المعاناةالحقيقية والعاطفة الصادقة. وتبقى القصيدة في النهاية صدى لإحساسات صاحبها، ومرآة تعكس همومه وشجونه. ولعلي لا أبالغ إذا قلت إن قصيدة الملوحي لا تقلّ جود عن قصيدة مالك، بل لعلها، في بعض الجوانب، تفوقها روعة وجمالاً.

وقد أشار الملوحي في السطور الاولى من مقدمة كتابه المذكور سابقاً الى الظروف التي دفعته الى رثاء نفسه بقوله: «عندما كنت في الصين وأصبت بجلطة في الدماغ وشلل في الشق الأيسر وأشرفت على الموت بدأت بقصيدتي في رثاء نفسي». وإذا كان مرض الشاعر وإشرافه على الموت هو الدافع المباشر الى رثاء نفسه، فإننا نُضيف الى ذلك ان الموت الذي خطف اخوته الثلاثة، ثم فجعه بزوجته (بهيرة) وابنته (ورود) تحول عنده الى همّ يومي وهاجس دائم يعايشه، ولا يفارقه لحظة واحدة. وقد كان لهذه الفواجع والمآسي التي ألمت به أثرها الكبير في نفسه، فغلب على شعره الحزن والألم، وكثرت في ديوانه قصائد الرثاء:

إذا كان شعري كل شعري مراثياً
فمالي بنفسي لا أعدُّ رثائيا
ونفسيَ أولى أن تكونَ قصيدة
تسيل قوافيها نشاوى دواميا

* * *

وكأني بالشاعر - وهذا ما أستشفه من أبياته السابقة - قد خشيَ أن يموت فلا يرثيه احد، فسجل رثاءه بنفسه، كما فعل المازني الذي اعتقد ان لا أحد سيهتم بموته فرثى نفسه قائلاً:

قضى غير مأسوف عليه من الورى
فتى غرّه في العيش نظمُ القصائد
فعاش وما واساه في العيش واحدٌ
وماتَ ولم يحفلْ به غيرُ واحدِ

* * *

كنا قد أشرنا سابقاً الى أنّ الشاعر بدأ بنظم قصيدته حين كان في الصين، إثر مرض شارف فيه على الموت، فكان تفكيره بالموت، وهو بعيد عن وطنه وأهله وأصحابه يُعمّق من إحساسه بالألم والغربة، ويزيد من معاناته، وخُيّل إليه أنه لن يرى وطنه وأهله مرة ثانية، فبدأ بنظم قصيدته مستحضراً صورة الشاعر مالك بن الريب، الذي مات بعيداً عن وطنه. فكما تمنى ابن الريب أن يبيت

ليلة واحدة بجنب الغضا، كذلك تمنى الملوحي ان يبيت في حمص ليلة، ويسبح في نهر العاصي:

تمنيتَ يابن الريب لو بتَّ ليلةً
(بجنب الغضا تزجي القلاص النواجيا)
وأمنيتي لوبتُّ في حمصَ ليلةً
وأسبح في العاصي وألقى لداتيا
كلانا تهاوى حلمه لم ترَ الغضبا
ولا أنا في الميماس ألقي رحاليا

* * *

والبيت الأخير يشير الى حالةاليأس التي وصل اليها الشاعر، والى انقطاع أمله بالعودة إلى الوطن. ولكن إذا كانت أمنية مالك لم تتحقق فمات غريباً بعيداً عن وطنه، فإن أمنية الملوحي تتحقق، إذ يمنُّ الله عليه بالشفاء ويعود الى وطنه، ويزول احساسه بالخوف من الموت في بلاد الغربة، ولكنّ فكرة الموت ظلت تلاحقه وتشغل ذهنه، وهذا ما دفعه الى إتمام القصيدة مستعرضاً مراحل حياته (الشباب والكهولة والشيخوخة). وإذا كانت مرحلتا الشباب والكهولة تمثلان ماضي الشاعر، فإن الشيخوخة تمثل حاضره. ومن هنا غلب على حديثه عن المرحلة الاولى والثانية الافعال الماضية، بينما كثرت الأفعال المضارعة في حديثه عن المرحلة الثالثة.

ومن قراءة الأبيات التي تتحدث عن هذه المراحل الثلاث يستطيع المرء ان يتعرف على النهج الذي اختطه الشاعر لنفسه في الحياة، وأن يكوّن صورة عامة عن شخصيته. يقول متحدثاً عن شبابه:

رشفتُ شبابي قطرةً بعد قطرة
وشبت فلم يعتبْ عليّ شبابيا
ولم ينسني لهوُ الحياة مشاغلي
ولم ينسني جدُّ الحياة الملاهيا
وخير السجايا أن تُوزّع منصفاً
حياتك شطريها حليماً وغاويا

* * *

أليس في هذه الأبيات ما يكشف جانباً من جوانب شخصية الشاعر؟ بلى. إنّ شخصية الشاعر تميل الى الاعتدال. واعتدال الشخصية ينمّ عما تتمتع به من توازن وانسجام ووعي وإحساس بالمسؤولية تجاه نفسها وتجاه الآخرين.

وفي حديث الشاعر عن كهولته يشير الى أسفاره، وخاصة رحلته الى الصين، ومن ثَمّ عودته الى الوطن بعد أن أصيب بالمرض:

وطوّفتُ في الآفاق أقبس نورها
فضاقت بيَ الآفاقُ كالنحل ساعيا
ويممتُ أرضَ الصين أشدو تراثها
ومن لغتي أهدي لها وتراثيا
وعدتُ الى داري أجرّ على العصا
تواليَ أشلائي وأحمل دائيا

* * *

ونقف في حديثه عن شيخوخته التي تمثل حاضره على صورة أحفاده، وهي صورة تعبر أصدق وأجمل تعبير عن فيض من المشاعر لا يدركها ولا يحسّ بها إلا مَن كان مثل الشاعر:

أسرُّ بأحفادي أزاهيرَ غضة
ويرثي ليَ الأحفادُ أعجفَ باليا
أداعبهم حيناً فأقصر لاهثاً
وتشغلهم ألعابهم عن عنائيا
إذا ركبوا ظهري حصاناً تململوا
يريدون مهراً ثابت الظهر عاديا
إذا رحتُ أحكي عن شبابي تغامزوا
ولاحَ لهم وجهي فألفوا شبابيا

ترائ زمان سوف يُدعى زمانهم
زمان كان يُدعى زمانيا

* * *

ويتجاوز الشاعر حاضره للحديث عن المستقبل. ولكنْ أيّ مستقبل؟ إنه الزمن الذي سيكون بعد موت الشاعر، الحياة ستستمر، ونظام الكون سيبقى على حاله، ولن يطرأعليه أي تبدل أو تغيير:

ستطلعُ بعدي الشمسُ حمراء تزدهي
ويبزغ بعدي البدرُ أصفرَ وانيا
وبعدي تدور الأرضُ لم تبدرِ مَنْ أنا
وتشدو السواقي في المروج الأغانيا

* * *

وإذا كنا نعلم جميعنا مآلَ الجسد بعد الموت، فأي صورة يمكن أن يتخيل المرء أفظع وأقسى من تلك الصورة التي تخيلها الشاعر لجسده بعد ان يوارى في التراب؟ وأي احساس سيراو د كلّ من يقرأ هذين البيتين:

وأبقى أنا وحدي أصارع في الدجى
كتائب دود رائحات غواديا
تمزق أشلائي وتفقأ أعيني
وتنثر في قرب الضريح رفاتيا

* * *

ولكن إذا كان مصير الجسد الفناء، فإن الأفكار تبقى، والخلود يكون لأولئك الذي يخدمون الإنسانية، وينفقون أعمارهم في سبيل سعادتها وتقدمها. وهذا ما يمنح الإنسان إحساساً بجدوى الحياة وقيمتها. وعلى هذا الأساس تتشبّع نفس الشاعر بروح الأمل والتفاؤل، وتتنامى في داخله مشاعر الاعتزاز وهو يتحدث عن وقوفه الى جانب الإنسان المكافح الثائر ضد الطغاة وأعداء الانسانية:

رويدكِ يا ديدانُ لن تلعقي دماً
تفجّر في شعري ونثري سواقيا
ولن تطمسي فكراً جريئاً رعيته
وعلّمته حتى عصتني لهاتيا
وإن ثارَ في الأرض العبيدُ وجدتني
نصيراً لزحف الثائرين مواليا
وإن أرهق الشعبَ الطغاةُ رأيتني
على كل طاغٍ فيه أنقضُ بازيا

* * *

ويعمرقلبه إيمان بالإنسان، متمنياً ان يعمّ السلامُ الأرض، وان تظفر البشرية جمعاء بحريتها وعدالتها.

وفي وصيته نقف على هذه الأبيات الرائعة التي تكشف عن حبه وشغفه بالقراءة والكتابة، وتُعبّر عن العلاقة الروحية التي تربط الشاعر بأدبه، والتي يريد لها أن تظلَّ وتستمرَّ الى ما بعد الموت:

ألا فاجعلوا الأكفان أوراق دفتري
ونعشي يراعي والحنوط مداديا
ضعوا تحت رأسي ما كتبتُ وسادة
ولا تجعلوا الصخر الأصمّ وساديا
لعليَّ في قبري أطالعُ صفحةً
فألمحُ في تلك الصحائفِ ذاتيا

* * *

الحديث عن هذه القصيدة يطول، ففيها متسع للقول ، ومجال للكتابة. ولم تكن وقفتنا القصيرة تلك إلا نافذة أردنا من خلالها أن نطلّ باستحياء على عالم هذه القصيدة. وهي وقفة تفتقر الى جمال العرض، وعمق التحليل، وبراعة في التفسير والتأويل. والقصيدة تحتاج الى مَنْ يقوم بدراستها دراسة أدبية نقدية، يتناول جوانبها الفنية والجمالية، ويكشف عن ابعادها الفكرية والنفسية والاجتماعية.

كلّ الحب والتقدير للاستاذ الاديب عبد المعين الملوحي، متمنّين له دوام الصحة والعافية.

عبدالسلام العجيلي

صفحات من حياته

بقلم:
أحمد شوحان
عضو اتحاد الكتاب العرب
عضو جمعية البحوث والدراسات

ضجّت صالة سينما القاهرة بدير الزور بالتصفيق حين صعد عريف الحفل وخاطب الجمهور المحتشد: والآن.. كلمة الدكتور عبد السلام العجيلي.

وصعد العجيلي درجات المسرح بهدوء وتؤدة، يحمل وريقات بيده، ومنذ أن قدّمه عريف الحفل الى أن استقر على المنصة والمنبر، والجمهور الفراتي يصفق ويبتسم ويحيّي أديبه الذي أحبه منذ نصف قرن من الزمان الأدبي.

وقف العجيلي ليلقي كلمة التكريم والوفاء للأستاذ الفراتي الذي جلس في الصف الأول ينظر ويعي ما يقول القادمون من سائر المحافظات فيه.. كلهم قالوا كلاماً حسناً.. جميلاً، لكن العجيلي وضع النقاط على الحروف، فقد قال كلاماً عن معرفة ذاتية، وخبرة عميقة بالأستاذ الفراتي منذ عشرات السنين. فكان لكلمته وقع خاص في قلوب الجالسين.

ساعتها أسرعت لأضغط أره آلة التسجيل التي اصطحبتها معي لتسجيل كلمته، وعن كثب كان الحضور يتهامسون قبل أن يبدأ كلمته: أديب الرقة.. طبيب الأدب.. ملك القصة.. وبدأنا نسمع كلماته التي أعطتنا صورة صادقة عن الأديب والشاعر.

كان ذلك في حفل التكريم الذي أقامته وزارة الثقافة واتحاد الكتاب العرب للشاعر الفراتي في أخريات أيامه، وذلك في مساء يوم الثلاثاء ١٩٧٤/١١/٥ وشارك في التكريم الأدباء: عدنان بغجاتي، فريد جحا، خليل هنداوي، عبد المعين الملوحي، حسان عطوان، سليمان العيسى.

وانتهى التكريم، فكنت كلما اشتقت

لسماع كلماته، انزويت في غرفتي الخاصة، وضغطت زر آلة التسجيل لأسمع منفرداً كلمات الثناء التي أهيلت للفراتي، وما هي في الحقيقة إلاّ كلمات رثاء معجلّ.

ومات الفراتي بعد فترة من ذلك التكريم (التأبين خلال الحياة)، وأقامت وزارة الثقافة له تأبيناً لمرور أربعين يوماً على وفاته في نقابة المعلمين بدير الزور.

*** مولده ونشأته**

في مدينة الرقة التي تنام وتصبح على ضفة الفرات اليسرى ولد الاديب عبد السلام العجيلي من أسرة نصف متحضرة، تنتسب لعشيرة البو بدران، التي نزحت من منطقة الموصل، وسكنت في أماكن متفرقة قرب دير الزور، وفي الرقة، والرها. فهم يعتزون بأرومتهم التي ترجع الى السادة (الاشراف) أبناء الحسين عليه السلام.

أما في أية سنة ولد فذلك ما يدعونا للحيرة والشك في صحة السجلات الرسمية، ورتابة الدوائر في تلك المدينة النائية، فقد وردت أرقام لسنوات مختلفة عن سنة ميلاده، مثل: ١٩١٢ ـ ١٩١٦ ـ ١٩١٧ ـ ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ـ ١٩٢٠، لكن العجيلي يقول: (في صيف عام ١٩١٨ وهو الصيف الذي ولدت فيه سحبت السلطنة العثمانية جيوشها من بلاد الشام)[1].

درس في المدرسة الابتدائية في الرقة، ونال الشهادة الابتدائية (السرتفيكا) عام ١٩٢٩، ثم التحق بتجهيز حلب، فمرض وانقطع عن متابعة الدراسة أربع سنوات، وكان قد شفي من مرضه الذي كان نعمة كبرى بالنسبة لحياته الثقافية، إذ قرأ خلال فترة الشفاء عشرات الكتب الدينية، والتاريخية، والشعبية، وكتب الأدب والشعر والتراجم.

وعاد الى تجهيز حلب بعد تلك المدة ليكون أكثر اطلاعاً من جميع رفاقه ـ وفي بعض الاحيان ـ من أساتذته في التاريخ والأدب على حدّ قوله. لقد كان نابغة في الأدب العربي، واللغة، والدراسات العامة.

لكنه كان مقصّراً في العلوم والرياضيات. ومن المفارقات أنه حينما أقدم على فحوص الحلقة الثانوية ـ الفرع العلمي ـ نال الدرجة الأولى والثانية عام ١٩٢٨، ثمان تسب الى كلية الطب بجامعة دمشق بين عامي ١٩٣٨ ـ ١٩٤٥، وهي فترة الحرب العاملية الثانية، حيث تخرّج فأصبح طبيباً، وتحققت أمنيته التي كانت تراوده منذ الطفولة.

*** كيف بدأ الكتابة**

كانت بوادر نبوغه الأدبي ظاهرة عليه قبل بلوغه سنّ الرشد، وكان يحلم أن يكون أديباً، قبل أن يصبح طبيباً. فحين كتب أول قصيدة أتقن فيها الوزن والقافية، لم يُلقِها في ذلك الجمع الغفير الذي احتشد في إحدى المناسبات، بل ألقاها صديقه عوضاً عنه، وكتم اسمه، مما دعا الناس في تلك الأيام يتساءلون: لمن هذه القصيدة؟ ولم ينته تساؤل السامعين حتى علموا أنها للشاب عبد السلام العجيلي، فراحوا يتوسّمون فيه النبوغ، ويتمنون له التوفيق والنجاح في دراسته.

ونتيجة لكثرة قراءاته، وغزارة مطالعاته المتنوعة استطاع ان يعبّر عن كل حكاية أو أقصوصة يسمعها، بأسلوبه الرفيع، لتكون قصة ناجحة تتلقّفها الصحف والمجلاّت، فكانت أول قصة مطبوعة له نشرتهامجلة الرسالة عام ١٩٣٦

بتوقيع (ع.ع).

بعد ذلك بدأ العجيلي بالكتابة في الصحف والمجلات الأدبية والسياسية العربية، ويتقدم الى اختبارات المسابقات التي ربح في إحداها مبلغ عشر جنيهات، وهو مبلغ كبير في تلك الأيام، مما دفعه لكتابة ونشر المزيد من القصص والروايات والشعر، حتى كادت أن تزيد الآن عن خمسين كتاباً بين قصة ورواية وديوان ، منها:

١ ـ بنت الساحرة: مجموعة قصص ـ دار مجلة الأديب ـ ١٩٤٨ ـ بيروت.

٢ ـ الليالي والنجوم: مجموعة شعرية ـ دار مجلة الأديب ـ ١٩٥١ ـ بيروت.

٣ ـ ساعة الملازم: مجموعة قصص ـ دار العلم للملايين ـ ١٩٥١ ـ بيروت.

٤ ـ قناديل اشبيلية: مجموعة قصص ـ دار الآداب ـ ١٩٥١ ـ بيروت.

٥ ـ عامان من السياسية الفاشلة: مذكرات سياسية، ذكره في الصفحة الأخيرة من كتابه (ساعة الملازم) المطبوع عام ١٩٥١.

٦ ـ حكايات من الرحلات: دار المعارف ـ ١٩٥٤ ـ القاهرة.

٧ ـ الحب والنفس: مجموعة قصص ـ دار الآداب ـ ١٩٥٩ ـ بيروت.

٨ ـ الخائن: مجموعة قصص ـ دار الطليعة ـ ١٩٦٠ ـ بيروت.

٩ ـ المقامات: طبع خاص ـ ١٩٦٣ ـ دمشق.

١٠ ـ أحاديث العشيات: مجموعة محاضرات.

١١ ـ باسمة بين الدموع: رواية ـ المكتب التجاري ـ ١٩٥٨ ـ بيروت.

١٢ ـ رصيف العذراء السوداء: قصة طويلة ـ دار الطليعة ـ ١٩٦٠ ـ بيروت.

١٣ ـ الخيل والنساء : مجموعة قصص ـ دار الآداب ـ ١٩٦٥ ـ بيروت.

١٤ ـ السيف والتابوت: محاضرات.

١٥ ـ حفنة من الذكريات: محاضرات.

١٦ ـ سبعون دقيقة حكايات.

١٧ ـ جيل الدربكة

١٨ ـ عيادة في الريف.

١٩ ـ حكايات طبية.

٢٠ ـ وجوه الراحلين.

٢١ ـ فصول أبي البهاء: دار طلاس ـ طبعة أولى ـ ١٩٨٦ ـ دمشق.

٢٢ ـ من كل واد عصا.

٢٣ ـ فلسطينيات

٢٤ ـ قلوب على الأسلاك: مجموعة قصص.

٢٥ ـ فارس مدينة القنطرة.

٢٦ ـ حكاية مجانين:

٢٧ ـ الحب الحزين

٢٨ ـ موت الحبيبة

٢٩ ـ ازاهير تشرين المدماة: رواية ـ وزارة الثقافة ـ ١٩٧٧ ـ دمشق.

٣٠ ـ المغمورون:

٣١ ـ محطات في الحياة: مجموعة محاضرات ـ وزارة الثقافة ـ ١٩٦٥ ـ دمشق.

٣٢ ـ ألوان الحب الثلاثة: (بالاشتراك مع أنور قصيباتي).

٣٣ ـ أشياء شخصية مذكرات ـ دار الكرمل ـ دمشق.

وله غير ذلك مطبوع ومخطوط، وقد زادت مقالاته وقصصه التي يحتفظ بها عن /٣٦٠/ مقالة. إذ أن الذين خالطوه عن

كتب قالوا: إن علاقاته مع الأدباء لا تقل عما كتب من قصص. فهو يستحق أن يكون أحد أساطين القصة السورية والعربية، حيث أننا نقرأ يومياً في الصحف والمجلات، أو نسمع بأجهزة الإعلام المسموعة والمرئية عن محاضرات وندوات له أو عنه، أو دراسات لقصصه، أو مقالات عن حياته.

لقد كتب العجيلي كتاباً بعنوان: (أشياء شخصية) نشر فيه سيرته، وسلوكه في الحياة، ونشاطاته في رحاب الأدب.

*** عمله الوظيفي .. والسياسة**

لم يعمل العجيلي في دوائر الدولة موظفاً، ولكنه عمل في الحقل السياسي، فقد مثل الرقة في المجلس النيابي السوري عام ١٩٤٧. وأصبح وزيراً عام ١٩٦٢ للثقافة والخارجية والإعلام.

وفي عام ١٩٤٧ تطوع الأديب الطبيب النائب في المجلس النيابي ضابطاً، بل مجاهداً في جيش الإنقاذ، ودخل مع المجاهد الكبير فوزي القاوقجي فلسطين، بغية تخليصها من مخالب الانكليز الخبثاء، وأنياب الصهاينة الغزاة، وقبل أن يصبح لليهود دولة وكيان شرعي معترف به عالمياً.

تحدث العجيلي عن هذه الفترة الحرجة التي عاشها وعانى منها كثيراً فقال: (كانت هيئة الأمم قبل ذلك بشهور قد وافقت على قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، قراراً يوضع موضع التنفيذ في ١٥ أيار سن ١٩٤٨ وهو اليوم الذي تنهي فيه بريطانيا انتدابها على فلسطين وتسحب منها قواتها العسكرية. لم يقبل عرب فلسطين، ولا قبلت الشعوب العربية وحكوماتها قرار التقسيم هذا... تشكل من المجاهدين المتطوعين في كثير من الأقطار العربية، وسورية في مقدمتها، جيش الإنقاذ، ومهمته الاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من مستعمرات اليهود في الأرض الفلسطينية، للحيلولة دون تطبيق مشروع التقسيم)(٢).

وكان فوج اليرموك الثاني بقيادة الرائد أديب الشيشكلي، حيث استفاد العجيلي من دخوله فلسطين عبراً ودروساً، لانقول: إنها نظرة تشاؤمية للواقع العربي يومذاك، وحاضرنا المعاصر، وإنما من خلال اختلاطه بالشريحة التي كان من المقرر ان تنقذ فلسطين، فقد اتضح له أن جيشاً يفقد العقيدة، ولا يرتبط بأصالته وروح أبطال أمته المجاهدين من السلف الصالح، لا يمكن أن يحرر شبراً من أرض ، بل ولا يستطيع ان يحافظ على أرضه وترابه الطهور مستقبلاً. لهذا نلحظ في محاضرات العجيلي ومقالاته وقصصه تلك النظرة الصائبة في الإنسان العربي غير المنظم تنظيماً دقيقاً، فعاد من جيش الانقاذ بخفي حنين، ثم هجر السياسة كحرفة، لكنه كان يراقب مجريات عن كثب بحذر شديد، ويتابع قراءة الأخبار وسماعها بالوسائل المتوفرة لديه.

وقد دون الأديب العجيلي ذلك في كتاباته فقال: إذا كانت لي من ذكريات مرضية في فترة عملي كسياسي، فهي ذكريات لا تمتُّ إلى السياسة بصلة، فترات إنسانية، أو عاطفية لا استطيع أن أعلنها على الملأ، لأن قليلاً من الناس يصدق أنها أجمل ما بقي في نفسي من فترات النفوذ والسلطان، أو أن الذين يصدقون لا

يفهمون معنى هذه الذكريات الضئيلة في مبناها، المترفة في معناها.

ويذكر العجيلي المناصب الوزارية التي تولاها فيقول: (في فترة من الفترات مرت بلادنا بظروف اضطرتني الى قبول المنصب الوزاري، كان ذلك في عام ١٩٦٢، تقلبت بين عدة وزارات، بدأت وزيراً للثقافة لما عرفت به من صفة ثقافية، ثم أصبحت وزيراً للخارجية، ثم تحولت الى وزارة الإعلام)[٣].

*** رحلاته**

حين زار ابن بطوطة بلدان العالم القديم من مشرقه الى مغربه استطاع أن يحصل على لقب (رحالة العرب) أو (رحالة الإسلام) وقد دون مشاهداته في كتابه المعروف: بـ (رحلة ابن بطوطة) وغرائب الموجودات التي رآها في أسفاره من أقصى الشرق في اليابان الى أقصى الغرب في أميركا. وقد دون بعض تلك المشاهدات في كتابيه (حكايات من الرحلات) و(دعوة الى السفر) كما ذكر جوانب كثيرة من ذلك في محاضراته ومقالاته، التي إذا ما قيست الى كثرة أسفاره عُدَّت قليلة، بل قليلة جداً، وربما نلتمس له عذراً فهو ذهب مصطافاً أو موفداً، أو لحضور مؤتمر، ولم يذهب رحّالة ليدون لنا كل ما يراه ولينثر لنا كل ما في جعبته.

زار العجيلي القارات التالية: آسيا - افريقيا - اوروبا - اميركا. وقد زار في هذه القارات الدول التالية: ايران - الهند - الصين - اليابان - لبنان - العراق - الكويت - الاردن - مصر - المغرب - تونس - السعودية - وبلاده سوريا، كما زار أميركا الجنوبية (الأرجنتين والبرازيل) والولايات المتحدة الامريكية - وفنلندا - والسويد - وألمانيا - وهولندا - والدانمارك - وبولونيا - وفرنسا - واسبانيا - وانكلترا - والبرتغال - وتركيا - وهنغاريا - ورومانيا - واوكرانيا - وبلغاريا - وتشيكوسلوفاكيا - والنمسا - وسويسرا - وايطاليا - وتركيا وغيرها.

لقد كتب العجيلي عن غرائب تلك المشاهدات قصصاً جميلة، بعيدة عن الفذلكة والعمق، ومن غير ان يشده القارىء والسامع بغرائب تشدّ أعصابه، أو تشنّج مشاعره، إنما كتب قصصه الرائعة كأنما يحدثك فيها عن نفسه (أقاصيص تمسك بك، وكأنك الكاتب نفسه، بلحمه وعظمه، واقف أمامك، مسمّر عينيه في عينيك في لحظات لقاء حميم)[٤].

لذلك راحت دور النشر الاوروبية تتسابق الى ترجمة قصصه ونشرها في طبعات زاهية في عدة دول في اوروبا.

ومع أن العجيلي زار كثيراً من الدول الراقية والمتقدمة حضارياً، الاّ أنه دائماً يحن الى الصحراء، والشيح، والقيصوم، والحرمل، تلك النباتات الطبية العطرة التي عاشت معه في طفولته وابتعدت عنه في الشيخوخة. لكنه لم ينسَ البادية، فهو يزورها بين حين وحين، ويكتب عنها كلما دغدغت قلمه حكاياتها.

سئل العجيلي عن نصيب البادية في التأثير على الشعر العربي المعاصر، ونصيب الحياة البدوية فقال: إن العرب سلفيون لا في الزمان فحسب، بل في المكان ايضاً، فمثلما كانوا يرون لأجدادهم خلاصة الفضائل كانوا يرون للبادية التي ترجع اليها اصولهم الافضلية على المدن بكل مافيها من نعيم، وطيب عيش، ولهذا كان امراء بني أمية حين تحضّروا يرسلون ابناءهم الى البادية، ليعيشوا حياتها ويتكلموا لغتها في طور صباهم

*** آراء العجيلي**

بلغ العجيلي من النضج الأدبي والفكري مبلغاً مرموقاً، ونستطيع أن نعتبر آراءه، وأقواله، وتجربته الأدبية

والفكرية فتاوى يرجع اليها الدارسون للحياة والمجتمع، إنه يكتب بلغة عربية فصيحة، يكتب ليرضي ذوقه الذي نمّاه بالمطالعات الغزيرة لأنه يرى من النقص أن يكتب الكاتب بلغة عامية ضيّقة الافق، فالعامية بضاعة مزجاة، لأنها محلّية الاستهلاك، والغريب في كتّاب العرب للقصة والواية انهم يكتبون بلهجات عاميّة مجهولة المعنى في القطر الواحد فكيف بالاقطار الاخرى؟!.

إن عوام العراق لن يفهموا العامية المصرية او الشامية أو المغربية، ولو كتبنا لهجة مغربي لاستحال على البدوي في الشام أو الحجاز أن يفهم منها كلمة واحدة، ولزادت حروف اللغة العربية أكثر مما هي عليه الآن.

سأل الاستاذ حلمي محمد القاعود الأستاذ العجيلي عن موقفه ككاتب وقاص من اللغة العامية، فقال: (لو كتبت قصصاً بلغة محلية لما فهمها أحد خارج المنطقة التي أنا منها. وهي منطقة وادي الفرات والبادية بقربه، ولكن أبطالي البدويين يتكلمون الفصحى، فيفهمها أبناء منطقتي كما يفهمها المصري والمغربي، عدا عن الواجب الذي يدعونا الى زيادة أواصر التفاهم بين العرب في كافة أقطارهم بالحفاظ على اللغة التي تكاد أن تكون الرابط الوحيد بين شعوبهم المتباعدة)[٥].

أما عن سبب أزمة القصة العربية ـ الرواية ـ وسبيل النهوض بها فيقول الاستاذ العجيلي: الحديث عن الازمة يعني أنه كان رخاء، فتلاه الضيق الذي نسميه أزمة. متى كان الرخاء في القصة والرواية العربيّتين؟ لا أذكر أنه كان ثمة رخاء مادي أو معنوي، نحن لا نزال في الميدان في طور التجربة. نستطيع أن نقول: أننا في حالة فقر أدبي.. أما العلاج فإنه لا يخضع لمنطق هذه الأيام الثوري، لا علاج إلا بالتطوّر المستمر، والتقدم المستمر نحو الافضل.

★ وداع الأديب

حين زرت الرقة في مطلع عام ١٩٩٦ لإلقاء محاضرة بعنوان :أخلاقيات العرب قبل الاسلام كان في مقدمة الحضور في صالة المركز الثقافي الدكتور العجيلي، حيث جلس متواضعاً، يستمع لكلمات مدير المركز الذي راح يقدمني لجمهور الرقة ويرحب بالأديب العجيلي، ويطريه إطراءً حسناً.

وبعد ان انتهيت من محاضرتي صافحت العجيلي، واقترب منا مدير المركز فقال له العجيلي: إذا ذكرتني وأثنيت عليّ مرة ثانية فلن أحضر الى هذا المركز بعد اليوم.

ساعتها عجبت من أدب الأدباء وتواضعهم.

واخيراً... ماذا اتحدث عن الاديب المبدع، ورائد القصة والرواية في سورية، وأحد اساطينها الكبار في الوطن العربي!!

ماذا أتحدث عن الشاعر والرحّالة الذي طاف الدنيا ورضي ان يقيم في مسقط رأسه، وأن لا يموت الاّ في الرقة وعلى ضفاف نهر الفرات.

ماذا أتحدث عن السياسي الذي فهم السياسة أخلاقاً، ومارسها صدقاً وعمل بها سلوكاً وتركها نقياً.

وأبدع فقدّم لنا الكثير من عطاءاته الثرّة.

وهل العجيلي إلاّ بعض عطاءات الفرات؟!

كل ذلك في ذمة صفحات التاريخ... الذي لن يطوي صفحته.

الهوامش:

١ ـ محطات في الحياة (ص١١٩) وزارة الثقافة ـ ١٩٩٥ ـ دمشق.

٢ ـ محطات في الحياة (ص١٠١).

٣ ـ محطات في الحياة (ص١٤٧).

٤ ـ مجلة الاسبوع العربي ـ العدد ٦٨٥ تاريخ ٢٤ تموز ١٩٧٢.

٥ ـ مجلة الآداب البيروتية ـ عدد آذار ١٩٧٢.

الشاعر الشيخ أحمد الشارف

بقلم:
محمد صلاح الدين بن موسى

ولد الشاعر أحمد الشارف في بلدة «زليطن» في سنة ١٨٦٤ ودرس بزاوية الأسمر والمعاهد الدينية المعروفة بليبيا، وقد درس الفقه الاسلامي دراسة عميقة واطلع على مذاهب التشريع ثم اشتغل بالقضاء الشرعي أكثر من نصف قرن وكان رئيس المحكمة الشرعية العليا عندما أحيل الى التقاعد. وتعتبر أحكامه الفقهية من أدق الأحكام.

وقد توفي في يوم الثلاثاء ١١ أغسطس عام ١٩٥٩.

وقد برزت مواهب الشارف الشعرية منذ صباه، ويلاحظ أن شعره به مسحة من القديم وطلاء من الجديد.

وقد كتب الشعر في أبواب كثيرة فله نبويات متألقة وشعر صوفي يفيض بالايمان واشراق الروح. وقد شارك بقلمه في الجهاد الوطني ويعتبر ديوانه سجلاً حافلاً للأحداث التي مرت بليبيا العربية منذ العهد العثماني الى عهد الحرية والاستقلال. وقد نشر شعره منذ ١٩٠٨ في صحف ليبيا ومجلاتها.

والشارف بجانب علمه الديني وشعره كثيراً ما عالج الكتابة، ونشر بضعة فصول ومقالات في الصحف الليبية قبيل الحركة الوطنية، وكان على اتصال ومراسلات مع شعراء وأدباء من تونس ومصر والشام والعراق برغم الحظر والتضييق الذي كانت تفرضه سلطة الاحتلال الايطالية على الليبين وذلك لكي تقطع اتصالهم بإخوانهم العرب من سكان الدول العربية الاخرى حتى إنه حينما أقيم في مصر (المهرجان الشعري أو السوق الشعرية كما يسميها بعض الأدباء (في عام ١٩٢٧ لتكريم الشاعر أحمد شوقي

وتتويجه أميراً على الشعراء العرب أراد الشاعر الليبي أحمد الشارف ان يحضر ذلك المهرجان ويشارك فيه ولكن سلطة الاحتلال منعته. ولم يكن أمامه سوى أن يرسل قصيدته التي يحي فيها شوقي وألقيت القصيدة في الحفل تحية من طرابلس، وكم طربت الأسماع واهتزت النفوس الشاعرة لهذا الشاعر البعيد الذي عرف شعره به ونم عنه قصيده وأفصح عنه بيانه.. شاعر من بلاد المغرب، البلاد التي يشن الغرب الاستعماري حرباً ضروساً ضد عروبتها، الغرب الاستعماري الذي يحاول ان يقتل لغتها العربية وقوميتها العربية ويفرض عليها لغة عربية وجنسية غريبة هي: الايطالية في ليبيا، والفرنسية في تونس، والجزائر ومراكش.

وقد حوت القصيدة روحاً عربية أصيلة وشعوراً عربياً يتدفق من نبع الاحساس الصادق، وقد منعت ايطاليا نشر القصيدة في صحافة ليبيا. ولكن رغم المنع فإن القصيدة عاشت بين أوراق احمد شوقي وأحمد الشارف وذهب الاستعمار الفاشستي الليبي واندثرت الدولة الفاشستية في ايطاليا.

قال الشارف في قصيدته الى شوقي:

يا أخا الأمر والإمارة والإعـ
ـجاز في كلّ حاضرٍ أو بادِ
لكَ في الشّرقِ عبقريّةُ شعرٍ
هي كالنّيل: مالها من نفادِ
أصبحت في نفوسنا تتمشّى
كتمشّي العقار في الاجساد
يوم تكريمك المحبّب ضاءت
قبساتٌ من نورك الوقّاد

* * *

روّحوني بما يريح فؤادي
واذكروا المنحنى وذاك الوادي
يا أخلاّء لا عدمت سهاداً
إن يكن في سبيل شوقي سهادي
عيل صبري، وطال سقمي حتّى
سئمت من عيادتي عوّادي
قد أطعتُ الهوى، وما خلتُ أنّى
في سبيل الهوى أضعتُ رشادي
إنّ شوقي إليك يا وادي النّيـ
ـلِ أبَى أنْ يهيمَ في كُلِّ وادِ

* * *

يوم تكريمك المحبّب ضاءت
قبساتٌ من نورك الوقّاد

* * *

يعتبر احمد الشارف من اكبر شعراء ليبيا، فكان يطلق عليه اسم شيخ الشعراء، وقد طال عمر الشاعر على درب الحياة، وطال نفسه في مجالات الشعر، وكان الشعب الليبي أيام الجهاد والمعارك والوطنية ومقاومة الاستعمار يردد أناشيد احمد الشارف وقصائده، ومن اشهر قصائده التي سارت في البلاد وخارج البلاد والتي حفظها الناس تلك القصيدة التي نظمها في أثناء المعارك الوطنية في طرابلس ضد الغزاة الايطاليين.

يقول فيها:

رضينا بحتف النّفوس رضينا
ولم نرض ان يعرف الضّيمُ فينا

* * *

في باكورة حياة الشاعر «الشارف» كانت الكتب نادرة والمطبوعات قليلة الانتشار إلا ان السراة والوجهاء كانوا يقبلون على اقتناء الكتب ويتوارثونها. كتب في الفقه والأدب ومعاجم في اللغة

وشروحها.

وكانت ظاهرة من ظواهر المجتمع في طرابلس أن يشجع الأعيان والسراة الأدب في شكل ندوات تعقد في «المرابيع» الملحقة بالبيوت، وفي هذه الندوات يروى الشعر والطرائف والفرائد.

كما كانت هذه الندوات «والسهريات» تتضمن بجانب المسامرات أدواراً غنائية وموسيقا وطرباً، فكانت تلك الندوات متنفساً لمواهب الادب والموسيقى والأدب الصوفي أيضاً، إلا أنها كانت من الضحالة بحيث لم تتح للمواهب الفنية إمكانية النضج الكامل.

كذلك كان للزوايا الدينية أثر ملموس في البلاد، وكانت هذه الزوايا والمعاهد والمدارس ملحقة بالمساجد وفيها ظلال من العلم وأنماط من الأدب وبها مكتبات لا تخلو من كتب قيمة.

ولكن الحياة الفكرية والثقافية كانت في حال من الضآلة والضحالة تشبه ما كانت عليه أيام الاتراك.

الكلمة ليس فيها حرارة ولا لون مميز، والأدب ليس فيه صبغة مميزة ولا يمكن أن يقاس نظماً او نثراً بالمعيار الفني الجديد، فالأدب بمفهومه ومضمونه وأدواته في تلك المرحلة لم يدرس كفن مستقل له حيثيته ومقوماته وطابعه ودلالته. ولم يدرس كعلم له فنونه، بل هو في ترتيب مواده وعند شيوخ الدراسة شيء إضافي، وهو أمر متروك الهواية والسير على غير منهاج، شيءمتوقف او مرتبط بالمطالعة الحرة.

ومن هنا كان الاديب ينشأ ولا مقوم له ولا سند.

ولكن في اواخر القرن التاسع عشر ظهر في ليبيا شعراء استطاعوا باجتهادهم الشخصي أن يكونوا لانفسهم شخصية متماسكة، منهم ابن زكرى وشتوان والشارف.

الشاعر أحمد الشارف فاق أقرانه ومعاصريه من مواطنيه أبناء ليبيا من ناحية الانتاج الشعري إذا لم تشغله عن الشعر أملاك أو سياسة أو مغامرات.

ولم ينظر للشعر كشيء زائد أو كمالي، إنماكان الشعر شغله الشاغل وهو راهب من رهبانه لم ينل في يوم من الأيام عن شعره أجراً أو جائزة.

وكان الشارف عندما ينظم الشعر يتمشى أو يهرول في سيره، بل لاحظ المقربون منه انه عندما يتملكه الوحي الفني تعتريه حالات ذهول وهيمان وسرحان.

في عام ١٩٠٨ أعلن الدستور العثماني في عهد السلطان عبد الحميد فكان إعلانه حافزاً للشباب وتكونت الجمعيات التي تضم الشباب الذي يطالب بالاصلاح، وكثرت على ألسنة الادباء والشعراء والخطباء عبارات مثل إخاء ومساواة وعدالة وحرية واصلاح وأهداف وارادة وطنية، وقال الشارف في حفل أقيم احتفالاً بالدستور:

أعيد لنا الدّستور و العود أحمد
فمن حقّه يُثنى عليه ويحمدُ
شفا غلّةً فينا وكنّا على شفا
ونارُ الأسى كانت بنا تتوقّد
ولاحت شموس الحقّ بعد خفائها
وضاء لنا في حندس اللّيل فرقد

* * *

كان الشارف يهتم كثيراً بالتراسل

مع اصدقائه من الادباء وكان من الادباء الذين يراسلهم «السنوسي بن صالح» وهو بالشام. كتب الشارف لصديقه أحمد الأمام الأديب عندما كان في تونس:

يا بارقاً لاح من الخضراء
أرمق رياض تونس الخضراءِ
وعج على مراتع الصّباء
وانشد فؤاداً ضلَّ في تيهاء
بين البحيرة وباب البحر
ويا نسيماً كُن لي لهم رسولاً
واقرأ سلامي الأهيف الضّئيلا
واحكِ لنا حديثه تفصيلا
وإنْ وجدت حولنا ثقيلا
إياك ان تبوح بالسّرّ

*   *   *

وواضح ان طابع هذه الابيات الذي ظل الشارف يتذكرهاالى آخر أيامه هو الطابع المألوف لشعر ذلك الوقت.

ولقد عاش الشارف شاعراً مرهفاً وفقيهاً دارساً لم يطغ جانب في نفسه على الآخر. كتب كثيراً في الغزل.

قال:

للقلبِ لولا انهمالُ الدمع كمّاء
وليس فيه لما يخفيه إكماءُ
تُخفى المحبّة والأحوالُ تكشفُها
وليس بعد انكشاف الحُبّ إخفاءُ

*   *   *

وتحدث عن نفسه كمحب قال:

سليبُ الفواد لم يُجرهُ حبيبُ
يجارى خليّ البال وهو كئيبُ
يهون عليه ان يوارى شوقه
عن الخلق لولا زفرةٌ ووجيبُ
تعذّرت الشّكوى فطال سكوته
وإن يدعه داعي الهوى فيجيب

*   *   *

والشارف في كتابته من أصحاب التجويد والتنميق في الورق، يسطر الابيات ويزيد ويحذف وينقص ويشطب ويضيف حتى تنوء ورقته بما حملت من هوامش وتشطيب، ثم يطلب من أحد أصدقائه أن يقرأها عليه ويطرب لما كتب، وكان يرتجل الشعر ولكن معظم ما ارتجله فقد.

بعض المهتمين بالتجديد يرون في شعر أحمد الشارف جموداً، أو عدم ترحيب بالتجديد ويأخذون عليه أنه كان دائماً يحمل على الشباب مع الشعراء لأنهم يدخلون الواناً جديدة من الشكل والمضمون في اشعارهم، وبعضهم عزا جموده الى فترات العزلة الطويلة التي عاشها ويذكرون انه كان يتمسك بالقديم في كل شيء، فمما يروى عنه أنه عارض بشدة دمج القضاء الشرعي والقضاء المدني وتوحيدهما. وقد رحب شيوخ ليبيا بحضور الدكتور عبد الرزاق السنهوري اليها ليشرف على ذلك العمل القانوني الضخم، ولكن الشيخ الشارف أصر على استقلال القضاء الشرعي عن القضاء المدني ورأى في ذلك جزءاً من دعوته للاستمساك بالدين.

والشاعر كان متشيعاً لأهل البيت رغم أنه لم يكن من مذهب الشيعة وله مدائح كثيرة في النبي المصطفى وآل بيته.

قال:

اذا رمت من بحرٍ طويل مدائحاً
فمدح النّبي المصطفى جوهرُ الكلم
نبيٌ له كنز المعارف والتّقى
ومنبع أسرار البلاغة والحكم

وقد قام الشاعر بنفسه بجمع ديوانه وتصنيفه الى الاقسام الآتية:
قصائد في مدح النبي عليه السلام
قصائد في الحماسة
قصائد في الامثال والحكم
قصائد في الشعر القصصي
قصائد في الرسائل
قصائد في الغزل والتشبيب

* * *

ضمت ١٥٠ قطعة شعرية مجموع أبياتها ٢٠٤٠ بيتا، ولكن كانت له قصائد اخرى كثيرة ضاعت.

عندما تقدمت بالشارف السن وهو في عزلة وجد أصحابه وسماره ينفضون من حوله، وازدادت وحدته بعد ان فقد قدرته على الابصار، وقد آلمه كثيراً انصراف اصدقائه عنه الذين شغلتهم المراكز او نفضهم الدهر عنه، ولكنه ظل مقيماً على عهدهم.

قال:

مازلت احفظ للكرام ودادا
عاد الزّمان اليهم أم عادى
تالله لا أنسى عواء بِرّهم
بخلَ الزمانُ بقربهم أو جادا
والقلبُ معتادٌ بصدقٍ ولائهم
أبداً وليس بتاركٍ ما اعتادا

* * *

وقال يعزي نفسه عن فقد بصره:

لا تظهروا أسفاً ولا تأسوا على
ما نابني يا قوم من عدم النظر
لي أسوةٌ بأئمّة فضلاء قد
كان العماء أصابَهم زمن الكبرْ
ولبعضهم زمن الشّباب وبعضهم
لم يعرف الألوان حتّى في الصّغر
قد جاءت البشرى لمن صبروا على
مانابهمُ والله يجزي من صبر
وفضيلة الإنسان راجعةٌ الى
نور البصيرة لا الى نور البصر

والشاعر بحكم دراسته الفقهية وبحكم اطلاعه على فنون البلاغة على نمط قديم ولتأثره بفن البديع والبيان وعلم المعاني على نهج القدامى نراه يهتم كثيراً بالألفاظ التي يستخدمها وكثيراً ما يتلاعب بها ويجنح للمقابلة بين كلمة وكلمة ويزاوج بين تعبير وتعبير مستخدماً احتمال الكلمةلمعنيين من باب المطابقة اللفظية مع اختلاف المعنى.

وأحياناً يتلاعب باللفظ لمجرد التدليل على المهارة في استخدامه والبرقشة اللفظية، الاموراللتي ازدهرت في فترات الانحطاط والتخلف الادبي.

وقال:

يا عشباً يضطرّنا شذاهُ
يقول الرّائدُ ذا العشب عش بي

* * *

وقال:

يا سرب القطا حتّام أنّى
أنادي حادي الأطفان سربي

* * *

وقال:

ارتشف الرّيق المسلسل
وعن الخمّار سلْ سلْ

* * *

وقال:

يا سعدُ قم حيّنا
بنفحةٍ من حيّنا
أما أن للعُذّالُ أن يقبلوا عُذري
وقد علموا يا صاح أنّ الهوى عُذري

* * *

وهذا مما يؤخذ على الشاعر أحمد الشارف إذ لا يخفى أن هذه الحيل اللفظية تجنبها كبار الشعراء الذين يقاس مقامهم كشعراء بقدرتهم على تسخير وتطويع اللغة والأوزان الشعرية للتعبير عن المضمون أوالفكرة التي يقولونها، والذين نجحوا في تجنب الانزلاق الى مثل هذه الألاعيب والحيل اللفظية التي تضطر من يقع في حبائلها الى التضحية بالمضمون في سبيلها.

لقاء مع

الصحفي الإعلامي التونسي

علي دخيل

حوار:

محمد العائش القوتي

المتلوي ـ تونس

منذ سنة ١٩٧٨ والصحفي الاعلامي التونسي «علي دخيل» ما انفك يناضل في سبيل الصحافة المكتوبة وما انفك ايضاً يطعم عمله الاعلامي بخبرته في الميدان التي أهلته ليشكل ظاهرة ابداعية مع الجيل الذي اكتشفه وواكب معه مسيرته الاعلامية... وحول بعض المسائل الشخصية والصحفية كان لنا معه هذا اللقاء.

*** بدايتك الصحفية والاعلامية في الصحافة المكتوبة؟**

لقد كانت البداية منذ سنة ١٩٧٨.. وكانت انطلاقتي الحقيقية في الدخول الى الميدان الصحفي مع جريدة جهوية «شمس الجنوب» آلت على نفسها تقديم المادة الاعلامية النزيهة والهادفة فنشأت بيني وبينها علاقة حب وود باعتبار مساهمتها الفاعلة في الانتعاشة المشهودة التي حققها الاعلام ببلادنا في السنوات الاخيرة وعلى المؤشرات الدالة بوضوح على تطور الانتاج الصحفي وعلى دور الصحافي في تحقيق اغراض التنمية وتبليغ الخطاب الثقافي والتربوي.. ثم تواصلت تجربتي مع عديد الصحف الوطنية والاجنبية ومن بينها جريدة «الحرية» لسان التجمع الدستوري، الديمقراطي ببلادنا والتي أقوم من خلالها بتغطية شاملة للاحداث الاجتماعية والسياسية والثقافية من منطقتي ومن المناطق المجاورة..

*** رأيك في الصحافة التونسية؟**

هي في الواقع مناسبة لابداء الرأي

في الصحافة او الاعلام بصفة عامة بتونس وهي مناسبة كذلك للتأكيد ان تونس العهد الجديد وفية لما تضمنه بيان السابع من نوفمبر من مبادىء سامية وتوجهات تتمثل بالخصوص في إشاعة الحريات الأساسية وفي مقدمتها حرية التعبير والصحافة كما أنها ماضية بكل عزم وثبات في دعم الانتعاشة المشهودة التي حققها الاعلام الوطني في السنوات الاخيرة بفضل المكاسب والاصلاحات العديدة التي جسمت الاختيارات الثابتة في هذا القطاع إيماناً بأهمية دور الصحافة والصحافيين في ترسيخ المسار الديمقراطي وتكريس التعددية الفكرية ودعم حقوق الانسان وتحقيق اغراض التنمية..

*** والصحافة العربية؟**

أظن ان هناك تطور ملموس باعتبار ما يلاحظ اليوم في العالم العربي من مد اعلامي جديد يعكس مشاغل الرأي العام وتطلعاته وهذا يعود اساساً حسب رأيي الى النقلة النوعية التي أحرزتها صحافتنا العربية عموما والتي تترجم عنها من جهة الارقام والبيانات المتعلقة بتعدد وتنوع الصحف والمجلات والمنشورات على اختلاف اتجاهاتها السياسية والفكرية ومن جهة اخرى المؤشرات الدالة بوضوح على تطور الانتاج الصحفي بفضل ماكتسبه من مصداقية وشفافية...

*** ما هو ربط الصلة بين الاعلاميين في النطاق الوطني والجهوي والمحلي؟**

إن مناخ الحرية والطمأنينة ببلادنا بات يميز الساحة الاعلامية دون اقصاء او تمييز ويحفز أصحاب المهنة على الاضطلاع برسالتهم النبيلة على الوجه الأكمل في ظل نظام اعلامي وطني يستجيب لحق المواطن في اعلام حر شامل ونزيه... ولقد دأبنا خطأ على الاعتقاد بأن وسائل الإعلام هي الصحف والمجلات التي يحررها صحافيون وعلى نطاق وطني وأهملنا هكذا جانباً مهما من وسائل الاعلام التي لها اهميتها ومكانتها والتي لا يمكن اسقاطها طالما هي تؤدي رسالتها الاعلامية ومنها اسوق على سبيل الذكر لا الحصر «الاعلام الجهوي» وما يتضمنه من صحف ومجلات واذاعات وغيره... وهذه الوسائل اعلامية جهوية بالمعنى الثابت للكلمة ذلك ان مصطلح جهوي يعني أساساً ما يصدر عن الجهة ومميزاتها وقد ساهم وواكب التحولات الكبرى للمجتمع.. ومن هنا كانت المصالحة او الصلة المتينة بين الاعلاميين في النطاق الوطني والجهوي باعتبار ان الاعلام الجهوي لا بد ان يكون فاعلاً لا مُنفعلاً حتى يساهم في إحداث تطور في المجتمع بدلاً من أن يؤدي عمله الى مزيد من الاحباطات..

*** دور الاعلام في تفتحه على المحيط؟**

قبل التطرق لبعض عناصر هذا الموضوع الهام يجدر بنا التعرض بايجاز

لدور الاعلام وتوجهاته العامة وهذه التوجهات التي هي وليدة التطور لمفهوم الاعلام ودوره كوسيلة اعلامية تساهم في نشر الاخبار بأنواعها ثم مساهمتها في عملية التنمية..

فإن كانت النظرة التقليدية للاعلام وهي تلك المواكبة الميداينة لجمل ما يجري في بلادنا وخارجها متابعة وتغطية وتعريفاً وترويجاً فان الواقع قد اظهر محدودية هذه النظرة في الوقت الحاضر مما يحتم علينا تنزيل مهنة الاعلاميين في اطار مفهومي اوسع يجعل منه اداة فعلية للتنمية والتقدم والتفتح على المحيط ووضع الاطر التشريعية والتنظيمية التي تكفل حرية الصحافة وفتح الفضاء الاتصالي الوطني بما يضمن للمواطن العربي حقه في اعلام متنوع المصادر والمحتويات باستيعاب التكنولوجيا الحديثة ومواكبة التطورات في هذا الميدان والارتقاء بالاعلام الى مستويات متقدمة من البحث والخلق والابتكار في جميع المجالات الاعلامية إضافة الى تعصير جهاز الانتاج باستجلاب اعصر المعدات وتطوير اساليبه وبتعزيز النواحي المتعلقة بتفتح الاعلام على محيطه دون الخروج عن وظيفته في تبليغ الخطاب الثقافي والتربوي..

*** الاعلام والتكنولوجيا الحديثة: "الطباعة عبر الاقمار الصناعية في العالم المتطور المتقدمّ"..؟**

ان الاعلام في سلسلة عمليات تطوره لا يبرز كفن إعلامي فحسب، انما كصناعة ايضاً استطاعت أن تجد وراءها العديد من الصناعات كالحروف والورق والاحبار الخ.. وقد شهد الاعلام اليوم تطوراً ملحوظاً سواء على مستوى الصناعة او على مستوى الفن والعمل باعتبارها وسيلة اعلامية وتعبوية... وهذا التطور يتماشى بالتوازي مع التطور التكنولوجي الذي يشهده العالم اليوم وبالامكان تعداد سماته في النقاط الموجزة التالية:

- تطور الفن الصناعي
- دخول الطباعة الملونة
- دخول عنصر الآلية او الاعلامية في مجال التصحيح وتطوير وسائل التقاط وتسلم الاخبار وتنوعها عبر الاقمار الصناعية وطباعتها..
- تطور عملية التوزيع ووضع آليات العمل اللازمة لاستكمال تطوير القطاع هيكليا وتنظيميا حتى يصبح الاعلام قادرا على التبليغ والانارة وحتى يتبوأ المنزلة التي هو جدير بها باعتباره عنصراً مؤثراً وفاعلاً في التحولات والاصلاحات...

وطبيعي فان هذا التطور انعكس بشكل مباشر على ارقام التوزيع وسرعة انتشار الصحف..

*** الاعلام وتعميق الحوار حول الاعلام والاتصال واساليبه البيانية بين التراث والتواصل؟**

في الواقع ليس من السهل على الباحث تحديد مواصفات وسيلة الاعلام... فهل هي الوسيلة التي تنشر الاخبار والمتابعات الثقافية؟ أم هي الوسيلة التي تسعى الى نشر المادة الثقافية في حد ذاتها للتعريف بها وربط جسور التواصل بينها وبين المتفرج او المستمع او القارىء الذى يبقى المستهدف الاساسي من وراء نشر المادة الثقافية؟

وتفضي بنا هذه الاسئلة بدورها الى أسئلة اخرى لاتقل عنها اهمية تتمحور حول تعميق الحوار الاعلامي والاتصال بين التراث والتواصل.. وهو مايدفعنا دائماً إلى مزيد البذل والتطوير في عصر يتقدم فيه الاعلام بنسق سريع ورهيب في تقنياته الحديثة وفي عالم تحول بفضل وسائل الاتصال الى قرية صغيرة.

اذن، فوسائل الاعلام وأدوات الاتصال مثل الموسيقى والاغاني التي هي وسيلة من وسائل الاعلام كذلك ينبغي ان تعيد النظر في تخطيط رسالتها لمواجهة المستقبل.. واذا كانت رسالة الصحافة ككل هي تشكيل الرأي العام فان رسالة الاعلام بأنواعه هي في الدرجة الاولى تشكيل الذوق العام..

ومنذ عصور نجد مثلا البحر الابيض المتوسط عاجزاً عن عزل سواحله الجنوبية عما يجري في شماله بسبب الاقمار الصناعية التي يمكن التقاط برامجها بهوائيات خاصة اصبحت في متناول المواطن العربي. وهكذا نرى أن هذا الارسال عَبْرَ هذه الاقمار اصبح في ربوعنا وأصبح البعض يدعي ان هذا سوف يهدد ثقافتنا وزعزعة التقاليد الراسخة.. وقد يكون هذا صحيحاً في مجمله.. لكن مادمنا نؤمن بضرورة تطور الاعلام بفضل التكنولوجيا الحديثة فلا بد لنا أن نتصدّى وعندما نتصدى فليس هو اعلان الحرب ولا الركون والخضوع ولكن بالمواجهة الشجاعة... تتم بأن يعكس اعلامنا كل الآراء والأذواق وان نتصدى الى المادة المبنية على علاقات شخصية ودس مقصود والذي يشكل خطراً كبيراً على تراثنا وعلى مستقبل الاعلام الثقافي الذي من المفروض ان يشكل السند القوي للحركة الثقافية التي نروم تأسيسها والمبنية على حق التجاوز والاختلاف في الرأي وعدم مصادرته وبناء المجتمع المتوازن وتعويد المواطن على التفكير الجيد وعدم اصدار الاحكام الاعتباطية المبنية على منطلقات سياسية او عقائدية او شخصية والمحافظة على ضمير البلاد الوطني والثقافي وتهذيب الذوق واعتقد اننا اذا استطعنا ان نحقق هذه الاهداف فاننا نكون قد ساهمنا في تنشيط الساحة الاعلامية والثقافية بالتفتح على الكفاءات المتواجدة ومواكبة التحولات الكبرى ونؤسس بذلك نمط المجتمع المدني.

الطفل
والتراث الحضاري

بقلم:
عدنان العلي الحسن

يعد التراث الحضاري والثقافي، أحد أهم العوامل المهمة في توطر المجتمعات البشرية لأنه يمثل النماذج الثقافية التي تتلقاها الأجيال عبر مسيرتها الحضارية.

وفي عصر انفجار المعرفة، المواكبة للتقدم التكنولوجي، واختزال الزمان بتقريب المكان وسرعة وصول المعلومة دون رقي، ظهرت الرغبة في التحديث وادت هذه الرغبة الى أن يوضع التراث الثقافي والحضاري ـ تعسفا ـ في مواجهة الحداثة والتقدم.

وادرك عدد من المفكرين العرب هذه المشكلة، وتصدوا لها، فوجدوا أنها لا تكن في التراث نفسه، وانما في طبيعة علاقتنا به... وطالبوا برؤية عصرية للتراث بحيث تجعله جزءاً منا.

ومن هنا لابد أن نشير الى أن الاهتمام بالطفل وعالمه لم يكن وليد السنوات الاخيرة.

فالطفل العربي قد شغل مساحات من اهتمام الكتاب والشعراء العرب، الذين التفوا اليه في سياق اهتمامهم بالحياة الاجتماعية وترجمة عنايتهم هذه بعدد من الرسائل والكتب والمصنفات الادبية والعلمية التي جاءت متناثرة في ثنايا السطور للتراث العربي الضخم بحيث لم يعطها الدارسون المحدثون ماهي جديرة به من التحليل و الاضاء.

فالطفل يجب ان تهيأ له كل الظروف التي تساعده ليكون ابن عصره وان يقدم له الأدب الذي يخاطب وجدانه وعقله، بما يتناسب مع مراحل عمره المختلفة.

فللطفل طبيعة خاصة عرفها الاقدمون معرفة عفوية من خلال ما شاهدوه منه، وعرفوه له.

والجدير بالذكر ان الرسول صلى الله عليه وسلم عدّ السنين السبعة الاولى من حياة الطفل للتكوين والرعاية التي لا يتحمل فيها الطفل مسؤولية، أو يؤاخذ على تربية أو تعليم، أما وقد بلغ سبع سنين فهو جدير بالتعليم والتربية والتوجيه من قبل أولياء الأمور، وذوي الشأن.

والعرب الأوائل ساروا على هذا النهج، وأثرت عنهم أقوال تأخذ بهذا فقالوا:

«لاعب ابنك سبعاً، وعلمه سبعاً، وجالس به اخوانك سبعاً يتبين لك أخلفٌ هو بعدك أم خَلفَ».

وقد كانت السنين المبكرة في عمر الطفل. مصدر عطف ورعاية على الاطفال من قبل العرب القدماء، وذلك لمّا ادركوه من قصور في تكوينهم وفي قدرتهم على التمييز بين الصواب والخطأ أو الحق والباطل، أو ما يجوز اقترافه من أعمال، وعدم اقترافه، وأكثروا من الأمثال والحكم والقصص والحكايات التي تصور هذه القناعة.

والجاحظ يعدّ من ابرز الادباء واقدمهم في معرفة طبيعة الطفل ومتطلباته، ومستواه الفكري وما يقدم له من مادة تتناسب مع قدراته.

وقد لحظناه يلتفت من بعيد الى أن مخاطبة الطفل وتحقيق حاجاته تعدّ من أصعب المهام ووصف الذين يقومون بهذه المهمة، بأنهم أكفأ الناس وأبعدهم في سبرغور الطفل حين قال:

«ألا ترى أن أبلغ الناس لساناً، وأجودهم بياناً، وأدقهم فطنةً، وأبعدهم رؤيةً، لوناطق طفلاً، او ناغى صبياً، لو توخى حكاية مقادير عقول الصبيان (الأطفال) أو الشبه لمخارج كلامهم وكان لا يجد بداً من أن ينصرف عن كلّ ما فضله الله به، بالمعرفة الشريفة والألفاظ الكريمة».

وابن سينا الشيخ الرئيس يرى أن لكلّ طفل طبيعة خاصة فما يلائم طفل ما لا يلائم غيره من خلال قوله: (ليعلم مدير الطفل أن ليس كلّ صناعة يرومها الطفل ممكنة له ومواتية لكن ما شاكل طبعه وناسبه وأنه لو كانت الاداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة اذن ما كان احد غفلاً من أدب أو عارياً من صناعة وأذن لأجمع الناس كلهم على اختيار اشرف وأرفع الصناعات، ولذلك نرى واحداً من الناس تواتيه البلاغة وآخر يواتيه النحو فينبغي لمربي الطفل اذا رام اختيار الصناعة ان يزن اولاً طبع الطفل وسبرغوره وقريحته وأختبار ذكائه ويختار له الصناعات بحسب ذلك.

والمقصود منه في قوله هذا هو مراعاة الفروق الفردية للطفل وميوله وموهبته اتجاه أي معرفة أو علم أو عمل يريده.

ورسول الله صلوات الله عليه وسلم دعا الى تربية الأبناء، هذه التربية القويمة بل إنه فضل التربية على الصدقة فقال: (يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق). وأيضاً قال: (فالذي يعلم ولده ويحسن تعليمه، ويؤدبه فليحسن تأديبه، فقد عمل في ولده عملاً حسناً، يرجى له من تضعيف الاجر فيه، كما قال عز وجل (منذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه أضعافاً كثيرة). وعمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال أيضاً: (علموا أولادكم العوم والرماية، ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً وروّوهم ما يجمل من الشعر).

فالشعر ضرورياً في التربية والتعليم، وكان الأباء يحرضون على أن لا يعرف أبناؤهم الا أحسنه لفظاً ومعنى، بل إنهم كانوا يأتون بنماذج من هذا الشعر لمعلمي أبنائهم، كما فعل عبد الملك ابن مروان مع مؤدب ولده، حين قال له: (إذ رويتهم شعراً، فلا تروهم الا مثل قول العجير السلولي:

يبينُ الجارُ حين يبينُ عنّي
ولم تأنَسْ إليَّ كلاب جاري
وتأمن أن اطالع حين آتي
عليها وهي واضعةُ الخمار
كذلك هديُ آبائي قديماً
توارثَهُ النّجار عن النّجار
مستهدين هديهمُ وقد افتلوني
كما أفتلي العتيق من المهارُ

*　　*　　*

إن ما تضمنته هذه الأبيات هو الإباء والعفة والكرم والاخلاق والاعتزاز بكرم المحتد وشرفه وعبد الملك بن مروان اراد من اطفاله ان يتعلموا هذه الامور من الشعر.

ولقمان الحكيم يقول لابنه: (إذا رأيت مجلس قوم فارمهم بسهم السلام، ثم اجلس، فإن خاضوا في ذكر الله فأجل سهمك مع سهامهم، وإن افاضوا في غير ذلك فتخل عنهم وانهض. وقال يا بني، استعذ بالله وكن من خيارهم على حذر وقال : لا تركن الى الدنيا، ولا تشغل قلبك لها، فإنك لم تخلق لها، وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها، فإنه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين، ولا بلاءها عقوبة للعاصين يابني، لا تضحك من غير عجب، ، ولا تشي من غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك، يا بني لا تضع مالك، وتصلح مال غيرك، يا بني زاحم العلماء بركبتك وأنصت اليهم بأذنيك، فإن القلب يحيا بنور العلماء، كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء).

والهيثم بن صالح أراد أن يعطي ابنه خلاصة تجاربه فقال له: (يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، وإذا أكثرت من الكلام أقللت من الصواب.

قال يا أبة، فإن أكثرت وأكثرت؟ يعني كلاماً وصواباً.

قال يا بني، ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك).

لقد أفلح الولد، الذي كان متشرباً لكل مافيه الصواب، مبتعداً عما فيه خطأ، فبز أباه في موعظته.

وحب الأبناء ظاهرة انسانية عامة، تتخطى حدود الزمان والمكان، ولا تتوقف عند شعب دون آخر أوأمة دون أمة، ذلك أن الأولاد قطعة من الأكباد كما يقولون، وقد عبر الآباء عن مدى حبهم لأطفالهم وأولادهم بشتى الأساليب ومختلف الطرق وفضلوهم على أنفسهم وفدوهم بأرواحهم.

وهذه الظاهرة فطرية عند الانسان فمثلاً: الفراعنة كان حبهم لأطفالهم حباً كبيراً، وكانوا يستقبلونه بالزغاريد والتهاليل، وكانوا يعدونه اعداداً علمياً وثقافياً، لانه بنظرهم لا يعلو عليها شيء وهذا ما ورد في وصية أحد الحكماء لابنه حين قال قال له «امنح قلبك العلم واحبه كما تحب أمك، فلا يعلو على الثقافة شيء».

ووضح له كيف يكون ذلك بأن قال له: (يا بني إن أيةُ مهنة من المهن محكومة

بسواها الا الرجل المثقف فإنه يحكم نفسه بنفسه) وفي كتاب الأخلاق الذي ألفه «فتاح حوتيب» أعظم كتاب في العالم وقد اشتمل هذا الكتاب على وصايا وحثّ على تربية الأبناء، ودعوتهم الى طاعة والديهم حيث قال يسعد الطفل المطيع الخاضع، ويحيى حياة طويلة حافلة بالخير والبركة وإني لم أبلغ هذه السن العالية الا بفضل طاعة الوالدين، وطاعة المليك، وقيامي بواجبي لهم خير قيام.

ويقول أحدهم «العلم لا حد له، والوصول الى نهايته لا يستطيعه أحد والكلام القيم أخفى من الحر الكريم الأخضر، ومع هذا فقد تجده في يد أمة تدير الرحى»

وأفلاطون اليوناني يقول: «إن أول واجب علينا أن نختبر ما يؤلف من الحكايات والخرافات اختباراً دقيقاً، ونختار منها الصالح الحسن، ونبذ ما اختير لهن من هذه الخرافات الصالحه فيكثرن من قراءتها على الاطفال ويقومن بها ما شئن من عقولهم وأخلاقهم».

ولكن ارسطو كان اعمق نظرة من أستاذه أفلاطون لانه مركز على دورة الاسرة في تربيتهم وذلك من خلال تمتعه بالعطف والحنان الذي غمر به أبويه فشعر بصدق عواطفهم، وعبر عنه بقوله «إن الأباء يحبون أطفالهم حبهم لقطعة منهم».

ومن خلال ما قرأناه وما درسناه في كتب التراث الحضاري فإن الطفل ليس كائناً واحداً عبر الزمان والمكان بل لكل طفولة مشاكلها ولكل زمان ومكان طفولتهما ولهذا وجب الانتباه الى ادراك الطفولة وتناولها لا كمعطي عمري بل كانتاج مجتمعي تتحكم بظروف زمانية ومكانية متطورة وإن التربية الحديثة بالنسبة للتراث ستكون قوة دافعة في تحسين نوعيته، وفي تطوير النشاطات والفعاليات الإنسانية المنتجة وترقيتها.

ومن هذا المنطلق فإنه علينا دراسة التراث دراسة علمية لتنقيته والسير به نحو الحاضر لمواجهة مشكلاته، وللمستقبل للتخطيط والتحكم في خط مسار التقدم الاجتماعي فيه فلا تراث بدون مجتمع ولامجتمع بدون تراث لأن هذا التراث جزء منا من ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا فيجب ان لا نهمله ونحن مسؤولون عنه مسؤولية فوق كل المسؤوليات لأن أطفال العرب اليوم هم المستقبل أولاً وأخيراً.

المراجع:
تاريخ التربية - احمد امين مصر ١٩٥٥
قصة الأدب في العالم - احمد امين وزكي نجيب محمود - مطبعة النهضة مصر ١٩٥٥ -
مجلة العربي العدد /٤١٣/ لعام ١٩٩٣
مجلة المعلم العربي العدد الثاني ١٩٩٥
ثقافة الأطفال د: هادي نعمان الهيتي مارس ١٩٨٨
مجلة الوحدة العدد «٦٥ - شباط ١٩٩٠ - ندوة حول توظيف التراث في تربية الطفل ص١٨٤
تربية الاولاد في الاسلام - الجزء الثاني - عبد الله ناصح علوان طبعة ١٩٨٥.

يونس أحمد رمضان

في ذكرى العلامة الكبير الشيخ يعقوب الحسن

شَمْسُ يعقُوبَ مَا بها تكويرُ
هكذا هكذا تقولُ العُصُورُ
جهبذٌ من جهابذ العلم والبحـ
ـث، وبحرٌ إليه تأوي البحورُ
وحصيفٌ تَبلّج العقلُ فيهِ
وإليه يدُ الكمال تُشيرُ
وإمامٌ أئمّةُ الفقهِ منهُ
تجتزي ما يسيغُه الجمهورُ
وسبيلٌ إلى الإله ووادٍ
أيمنٌ، وهو في المناجاة طورُ
إنّ إشراقه يدلُّ على الصُّبـ
ـح، ويهوي بوهجه الدّيجورُ
وبإبداعِه دفيقٌ مِنَ النُّو
رِ، وظلٌّ إذا ألمَّ الحرورُ
كُلُّ شيءٍ يبورُ غيرُ تُراثٍ
فكَّ يعقوبُ طرسَه لا يبورُ
يُونُسٌ جدّيَ استطاب شذاه
وشذاهُ به تَضُوعُ العطورُ

في مهبّ الرّياح ما قد عداهُ
مجدُهُ خالدٌ، وتفنى الدّهورُ

أينما عاش فالزّمانُ دوامٌ
أينما حلَّ فالمكانُ نُشُورُ

بعث النّور في جفونِ الدّياجي
بكتابٍ ضياؤه منشورُ

لم ينم عن مآثرٍ هي سفرٌ
للبرايا، ولا تنامُ البُدُورُ

أُفُقٌ تطمحُ الدراري إِليه
وذُكاءٌ وبدرها والنُّورُ

يا لخصبٍ ربا، فأورفَ فينا
جنَّةَ! فهي نضرةٌ وسرور

تسمرُ الرُّوحُ بالرّياحين فيها
ونعيمُ السّميرِ ملكٌ كبيرٌ

وأنيسُ الحياةِ مولىً كريمٌ
ومفيضُ الحياة ربٌّ قديرُ

هُوَ عَونٌ، وصاحبٌ، وحفيظٌ
وهو ـ سبحانه ـ وليٌّ نصيرُ

شدّ أزرَ، الإِمام وهو يُعاني
بتباريحه، ولا يستطيرُ

لم ينمْ طَرْفُه، ليُوقظ شعباً
هوَ فيه ـ على مداه ـ الضّميرُ

ويقولُ الجميعُ: هذا شهابٌ
في مجالي طُلُوعِهِ التّنويرُ
هاجه بارقُ السّنا من قُباءٍ
ونسيمٌ من يثربٍ وعبيرُ
وشميمٌ من الحجونِ وورْدٌ
سالَ من مكّةٍ، إليه يصيرُ
صُوّرت روحُه بمعناه وصفاً
يعجز الوصفُ فيه والتّصوير
في طُوىً والحنانُ نَبعُ عطاءٍ
وهو في بسطه الحنان أميرُ
سكبُه سكبُ ديمةٍ تتوالى
وسكيبُ الحياة فيها نميرُ
شَبَّ في فكرهِ بكلّ النّوادي
مبحثٌ طيّبٌ، وشعرٌ نضيرُ
فجُّه نبعةُ الرّياحينِ، فيه الـ
نرجسُ المستهامُ والمنثُورُ
وغوادي علومه تتهدَّى
بعليم منهاجُهُ مشهورُ
كلُّ فردٍ يوحّدُ النّاس حيٌّ
كلُّ حيٍّ يُفرّقُ النّاس بورُ
إنّ ندباً توحّد الشّعب فيه
هو دنيا ولا مدىً منظورُ

ما ثناهُ عنْ معاليه قسرٌّ

مالَوَاهُ عن مبتغاهُ هجيرُ

يسّرَ اللّه قلبه للمعالي

في كنوزٍ، وإنّها الإكسيرُ

قد رعاها بطارفٍ وتليدٍ

كلُّ ما قد رعاهُ فهو كبيرُ

فاق أقرانه مقاماً مُنيفاً

أين ثهلان عندهُ وثبيرُ؟

أتحفتنا رسالةٌ لذَّ فيها

حلبٌ ذائبٌ، وشهدٌ مشورُ

أوضح الحقُّ ما بها وعليه

رسمَ الدّينُ ما إليهِ المصيرُ

قد أماط اللّثام عنها بيانٌ

خطّه الجدُّ والرُّؤى والشّعورُ

لصلاح الأنامِ يزهرُ فيها

قلبُه الواسعُ الكفيُّ الخطيرُ

همُّهُ شعبُهُ يروح ويغدُو

والدّراري تدورُ حيثُ يدورُ

سؤال..!

وتســـألني؟ وتســـألُ عن شـــعـــوري
وكلُّ حـــــــرائقي بين السطورِ..
وتســـألُني..؟ كـــأنكَ لستَ تدري..
بما فـــعلتْ عـــيـــونُكَ في غـــروري

*　　　*　　　*

وتســـألُني! وتعلمُ .. مـــا أعـــاني
وتلمسُ جـــمـــرتي.. في الزمـــهـــريرِ
ألا تدري؟ بأنكَ .. للتـــــمنّي ..؟
وللنعـــمـى..، وللولهِ المثـــيـــرِ..؟
حـــبـــيـــبي! كـــيف تسألُني.. وتنسى؟
أنينَ الآهِ فـــي قـــــــدَري المريرِ..؟
تنامُ..! وتملأُ الأشـــبـــاحُ .. ليلي!!
فكيفَ تنامُ.. مُـــرتاحَ الضـــمـــيـــرِ؟!
أُســـائِلُ كلَّ طالعـــــةٍ.. ونجمٍ
عن القَـدرِ المُخبـأ .. عنْ .. مـصـيري

وأســـبحُ في نســـائِمكَ .. النـدايا
فكيفَ أخــافُ لافـحـةَ .. الهـجـيـرِ؟
وتســبـقُني إليكَ إذا.. التـقـينا..
مع الأحـلامِ .. زوبعـةُ العـبـيـرِ..!
هنا بين الجـــــوارحِ.. ، والحنايا..
ســـــريرُكَ رفَّ بالألق الوثيـــــرِ
فنمْ فـــوق الجـراحِ .. وقـرّ عـــيناً
فـــجـــرحي.. للأزاهرِ ..والعطورِ..!!

*　　　*　　　*

أمـــيـــرَ هواي.. هل في الكون حبٌ؟
كـحُـبي؟ ضاعَ من عَـبَقِ البـخـور؟!
وهل في الكون قلبٌ مـــثل قلبي؟
يخـــافُ عليكَ من همّسِ الشـــعـــورِ؟
أتســـمع مـــا تئِنُّ به .. ضلوعي؟
أتفـهـم مـا تُغـمـغـمُـهُ.. زهوري..؟

ويحـــملُني الحنينُ إليكَ.. إمّـــا..
ســهـرتُ..! وإنْ لجـأتُ الى سـريريْ..
وأعـــزِفُ في سكونِ الليلِ..لحني
وأُرسلهُ.. الى القـمـرِ.. المُنيـرِ..
ليـفـتحَ مُـقلتيـهِ على اشـتـيـاقي
الى النجـوى.. الى الوعـدِ النضـيـرِ

*　　　*　　　*

حـبـيـبي أنت في عـينيَّ .. صُـبْحٌ
ووجـــهُكَ في دمي ـ بدرُ البــدورِ ـ
أنرْتَ ظلامَ أيامي.. فــجــادتْ
بأندى العطرِ ـ زنبـقـة الصـخـورِ ـ!

*　　　*　　　*

حـبـيـبي! كـيف تسـألُني.. وقلبي..!
على كـفـيّكَ..كـالطفلِ الصـغـيـرِ؟!
تُداعـبُـهُ.. ، وتغـمـرهُ .. حناناً..
فـيـرْفلُ بالبـشـائرِ .. والسـرورِ..
ويبـقى في حــمــاكَ أسـيـرَ وجْـدٍ
ألمْ تأسـرهُ؟ بالوجـد الكبـيـرِ؟

*　　　*　　　*

أطيـــرُ إليكَ ســرّاً من خــبــائي..
مُــعطرةً.. بغـــاليـــة العطورِ
لأمـــلأَ جــانحـيكَ شـذىً ونعـمى
وأفـــرُدَ جـــانحينِ من الحـــريرِ
الى لُقـيــاكَ يحـملُني اشـتـيـاقي
خـيـالاً فـوق أجنحـة .. الأثيـرِ..
ويومٌ لا أراكَ .. يمرُّ عـــامـــاً
كـعـامِ الجـدْبِ .. في ليل الفـقـيـرِ..!

*　　　*　　　*

كـــذا طبـــعي!! بربّكَ لا تَلْمني
إذا مـــا لُمتَ ..ربّاتِ الخــدورِ
فُطِرتُ على الوفـــاءِ فكيف أسلو؟
هواكِ؟ وقـــد تغلغلَ في جـــذوري

*　　　*　　　*

ســأبقى في هواك أصــوغُ وجْــداً
وأغنيـــةً.. ـ إلى الرمق الأخـــيـــرِ ـ!
غـــداً إنْ ســالمتك يدُ الليـــالي
وأزهر حُــبُّنا .. بيــد العــصــورِ ..
ســيــحــملُنا المســاءُ رفـيـفَ حُلْمٍ
وينشــرُنا الصــبــاحُ شــعــاعَ نورِ..

*　　　*　　　*

شعر: لامرتين

ترجمة: فاطمة عابدين

الـوادي..

هذا الوادي هو وادي ـ فورميلا ـ في ـ غران لان ـ وقد بقي فيه لامرتين مع صديقه ـ ايمون دو ڤريان ـ عام ١٨١٩، وذكر في شروحه انه كاد يغرق في بحيرة صغيرة الى جانب الطريق وانقذه صديقه «في الاسرار»

تعب قلبي .. من كل شيء حتى من الأمل.
لن يذهب بامنياته ليثقل على القدر،
فاعرني ايها الوادي.. وادي طفولتي..
ماوىً ليوم واحد .. انتظر الموت فيه.

ها هو الطريق الضيق لذلك الوادي المظلم..
غابات كثيفة تمتد على جانبي الهضاب
تلقي على جبيني ظلالها المتشابكة
فتغمرني تماماً بالصمت والهدوء..

ساقيتان تختفيان خلف جسور الخضرة
ترسمان في سيرهما حدود الوادي
يمتزج خريرها بالمياه .. فتضيع سراعاً
قرب منابعها لا تخلف اي أثر..

هكذا مضت ينابيع ايامي
دون صخب ودون اسم أو رجوع
لكن أيامها قد رقت وايامي المضطربة
لم تستطع ان تعكس صفاء يوم واحد فيها.

تأسرني عذوبة مائها وجمال واديها
والظلال الحلوة التي تدور فيها
ابقى.. وطيلة يومي ـ فيها
كطفل يهدهده غناء رتب
يرتاح فؤادي الى خرير المياه.

هناك.. تلفني أسوار من الخضرة
وافق فسيح يحده امتداد البصر
هناك ـ احب أن تتوقف خطاي
فأبقي وحيداً مع الطبيعة
لا اسمع سوى خرير المياه ولا ارى سوى السماء.

رأيت كثيراً، احسست كثيراً.. واحببت كثيراً
في حياتي
فأتيت الآن ابحث عن هدوء ـ ليته ـ
ايتها الاماكن الرائعة

كوني لي حدود النسيان
نفيه وحده.. راحتي وهنائي.

يهدأ قلبي هنا وترتاح روحي
ويتلاشى الضجيج القادم عبر الطريق
كصوت تخفيه المسافات وينقله الهواء
لأذن اثقل الزمن سمعها.

فأرى الحياة هنا.. من خلال الضباب
تنفتح أمامي على ظلال الماضي..
ماضي البعيد.. لم يبق منه سوى الحب
كصورة كبيرة لم تمحها اليقظة
من حلم غرق في النسيان
اهدئي هنا.. ايتها الروح.. في هذا المأوى الأخير
كمسافر امتلأ قلبه بالحياة والأمل
يجلس قبل ان يدخل.. على مشارف المدينة
ينشق قليلاً.. عبق نسائم الأصيل.

ونحن.. كهذا المسافر ـ نثير الغبار باقدامنا
ـ فالانسان لا يمر ثانية من هذا الطريق..
ننشق مثله قبل الدخول
ذلك الهدوء الخاطف ـ قبل الراحة الأبدية.

ايامك قصيرة ايها الانسان
معتمة كأيام الخريف
متعرجة كالظلال على ثنايا الهضاب

تخونك الصداقة يتخلى عنك الحنان
وتنزل وحيداً في درب القبور

لكن الطبيعة.. هنا.. تدعوك اليها وتحبك
فاحتمِ في صدرها المفتوح لك دائماً.
لو تغير كل شيء في حياتك، فالطبيعة لاتزال
وتشرق الشمس نفسها لتضيء ايامك..

تحيطك دائماً بالنور والظلال..
انزع من قلبك حب الثروة التي فقدتها
واعشق الصدى.. الذي عشقه ـ فيثاغورس ـ
واصغِ معه الى انغام السماء المقدسة.

رافق الشمس في رحلتها السماوية واتبع ظلها على الارض
وطر في الفضاء الفسيح مع الريح
واهبط مع اشعة الكوكب الرائع اللطيفة..
من خلال الغابات الى اعماق الوادي.

فالله قد خلق لنا الحجى لندرك كل هذا
فنكتشف خالق الطبيعة من خلالها
وينطلق صوت خفي.. يتحدث الينا في الصمت
ومن منا لم يستمع الى هذا الصوت..
في خبيئة نفسه؟!

«التأملات الأولى»

الشيطان امرأة !..

مثل جنّية عارية..
فاحَ منها عبق السحرِ الأخّاذِ،
لامَسَتْ شفتيها خدَّ التفاحة الورْديّ..
تمايلَتْ...
كأنما تتمايل في عرسِ آلهةٍ المردةْ!..
تأمَّلَتْ آدمَ..
لمعَ بريق في أفقِ عينيها..
حُبكَ سحره،
منْ إشراقِ سلطنةِ شعاعِ الشمس!..

نغمةٌ تقطرُ رغبة،
أشبه بالمواءْ!..
رنَتْ اليه...
أغْوتْهُ،
وليمة.. نُسجَتْ منْ أحابيلِ إبليسْ!..

مدَّت يدها..
حكَتْ بعينينِ راغبتينْ:
ـ تذَوَّقْ... ما أبدع نكهتها!..

مثل قدِّيس هوى منْ محرابهِ،
خرَّ ساجداً!..
مثل قدِّيس،
صام دهراً.. وجاع قهراً،
إمْتُحِنَ بعذابِ الرجمْ!..

مسَّهُ سحرها اللاهب:
ـ سامحني يا ربّ،
سأتذوّق الثمرة رغم التحريمْ!..
ومادَتِ الدنيا.. مادَتْ.. مادَتْ!..
فارتْ نوافير الدماء،
شلال ورود عطرةْ!..

صارتْ حوريّة تضاحكُ البحر..
صار.. موجاً يغمرها بأثواب نسيجه،
تغوصُ.. ترتفعُ..
تتهادى وسط أحضانه!..

صارت شمساً أفكة،
تمدّها برحيقِ السحرِ..
تنسجُ لها العشق،
حلماً.. منْ خيوط شعاعها الباهرْ!..

أحَسَّ بالوخز الشائكِ،

هاماتْ جبالٍ مُدَبَّبةْ،
تنْهش جسده الملقى في الوعرِ..
علقمٌ يكويه في الحرِّ الخانق!..
صاحَ متضرعاً:
ـ آه.. لو أن البحرَ يصيرُ أفعى،
تتمطّى..
تلْدغُ جسدكِ المداعب زبد الموج!..
لو أنَّ الشمس؟..
تصيرُ شرنقةً،
تُشَرْنِقُ كيانكِ الطاغي..
تغوصُ بكِ الى اعماقِ الظلمةِ..
تنكفيء عنِ الإشراقِ
تتعفّنُ التفاحة..
تَنْشَلُّ قدْرتكِ،
على الاقتناصِ منْ جديدْ!..
كان يستقيمُ النوْرَ،
شعاعاً.. لاهوتياً... سرمدياً..
متحرراً،
منْ زيفِ مَجْدِكِ الإبْليسيْ!..

ويحترق الاثم بالخشوع!

وتسألين يا سيدتي،
عنْ لونِ الغضبِ في أسرارِ عينيّ!..
عنْ لونِ الخطيئة المنْسيَّةِ،
في صفحةِ توبتي القدسيَّة؟..
وتسألين:
ـ ماسرّ الضياء في ذوآباتِ النفسِ،
لشاعرٍ..
أهلَكَ في سحابة الديجورِ،

إشراقة نهاره؟..
مزّقَ سلام السكينة الأولى،
ناسجاً منْ تعاويذ الافكِ،
سنابلَ أشعارهْ؟!
إنْ عَصَفَ الشوق بحناياهُ؟
ماجَ...
يُزبدُ من عتوةِ الشيبِ،
عصارة إختماره!..
تسألينَ يا سيّدتي،
وتسألينَ.. وتسألينْ!..

أنا ياسيدتي،
ماردْ منْ هذي الروابي..
سُجنَ في «قمقم» مسحور
نَفحهُ بوق جنيّة
أغوته بباقة جدائل سحرية:
من بعضِ خيوط القمر الفضيّة
وشمائل نسيج أشعة بنفسجيّة
وتمايل خصر أميرة غجرية!..

أنا يا سيدتي،
من حطّم «القمم» في عتمة المغاره..
من طلبَ متعة الفردوس،
بعد انبلاجِ نهاره!..
من تقزَّمَ في التحررِ من أثامِ البغاءْ!..
وأهلكَ الليل في البحث عن خنجرٍ،
يشقُّ بهِ صدر الخطيئة،
يتغذّى من أقانيم النقاء!..
يمحقُ الرزايا في تعاويذ ساحرةٍ
ترتدي رداء مومياء..
تحملُ الأسرار إفكاً،
تنثرُ من نسْجها للعشق،
طيب الولائمِ..
تُزيّنُ بترانيم الرُّقى دروباً،
مرصوفة بالأسى والشقاء!..

وتقولين يا سيدتي:
- ما لون التراب في حمرةِ حدقتيك؟
ما طعم الارتعاشة الأولى؟
وما اساويه من قصائدٍ منثورةٍ،
نسجتها خمائل خيالك،
وحبَكتها أنامل يديك؟..
التوبةُ المزعومةُ يا شاعري؟
دعها...
وليكنْ لنا منْ ماضي السنين أثر،
ارى فيه لمسةَ العشق،
في سويداء الليالي..
وزبد الموج،
يرتعش في سويعاتنا العتاق..
في ذكر الاشراقة اللاهبة،
لضمّ ذراعيك.. وضغط ساعديك!..

تُعيّرينني يا سيدتي؟..
تعيرينَ جمال نفسي،
هائمة في حدائق الفردوس البهيّ..
باحثة عن عمادةٍ،
تخلّص الذات منْ جحيمٍ سرمديّ!.
عن لهبٍ قدسيٍّ،
يصهرُ الأثام المتغلغلة،
في مسالكِ الرَّعشة الجهنّميّة..
ينتزع الأقنعة السوداء،
من عروق حضارةٍ بويهيميّة
يغسلُ كياني المتعب منْ تشرذمٍ،
الأفك في صيرورتي العاجزة!..
يحرّرُني من سلطانِ اغوائكِ الأبليسيّ..
يعيدُ اليَّ نقاء الولادة المقدّسة،
من فم «جبرائيل»،
طفلاً.. رضيعاً..
يغبُّ.. من اسرار الصفاء النورانيّ!..

صرخة في عالم غير مألوف

بقلم:
فاضل السباعي

فتحتْ عينيها... وحدّقت في السقف هُنيهةً كالمذهولة، قبل أن تُدرك أنها في «المهجع» بين زميلاتها. وهتفتْ، بينها وبين نفسها، في نشوة:

«ياله من منام!».

وانقلبت، وهي في سريرها، الى الجانب الآخر، صوب النافذة الشرقيّة، وقد استشعرت خوفاً حقيقياً: إنه يطاردني حتى في الأحلام! ثم فكّرت: أما آنَ له أن يعلم أني بنت شريفة؟! أنا لست مثل بنات المهجع الآخر! شريفة، أنا بنت شريفة! أولئك هنّ مَن يرغَبْنَ في تلك المُداعبات التي تؤدّي الى... وصعّدت من أعماقها تَنَهُّدة، ثمّ سَحَبت اللحاف الى ما فوق رأسها: أقول لهم: «عبدو سلام يُطاردني»، وهم لا يصدقون! لا يصدّقون! لا يصدقون!... اختلط الخوفُ في صدرها بالنّشوة: طيّب، لن أصُدَّه بعد اليوم، لن أهرب منه... ليفعل بي ما يشاء!

أرسلت إليها الشمس أشعتها عبر النافذة. اقتحم نورهاالظّلمة الصغيرة التي اصطنعتها تحت اللحاف. يا له من حُلُم! هتفت بينها وبين نفسها، ثمّ فكرت: عبدو سلام يُشبه «تيسير بيك»! وتساءلت: لماذا يرد هذا التّشابه على خاطري دائماً؟ وتملّت النّظر من شجرة السّرو، المهتزّة من هواء الرّبيع، السّابحة في نور الشمس: يومٌ جميل! إنه يوم جميل! سعيدة هي بوجودها هنا. ليت أيامها في «المعهد» تطول. تحب عبدو سلام. يلذُّ لها أن تستعيد في خاطرها كلمات تيسير بيك. ولكن، وا أسفاه: يقولون إنهم «سيُخْلُون سبيلَها» عمّا قريب! وماذا ينفعها أن تتحرّر، أن تخرج من هنا؟ ألكي تعود تخدم في بيوت الناس؟ خير لها أن تبقى في المعهد. سئمت العمل في البيوت. صانعة، صانعة! تكره سيّدتها: «أم مروان»! اضطرب أمرها في بيتها، آخر البيوت الذي انتهت منه

الى المخفر، بسبب السوار الذي ضاع!
قررت في تصميم: أنا لست سارقة، أنا صانعة أخدم، نعم، ولكني لا أسرق!

وفكّرت في حنق: تبّاً لأبي! حملها أبوها، وهي طفلة، من الضيعة إلى دمشق. نقلها من بيت الى بيت... أتعس البيوت كان: الأول والأخير. ولكنها ـ لتقل الحقّ ـ سعدت في بيت سيّدتها أم مروان. وتذكرت تيسير بيك، ابن أخت سيّدتها ما أعظمه! ما أرقّ كلماته! ما أعذب نظراته! آه، كانت دقيقةً واحدة فقط، ولكن لن تمحوها الأيّام من ذاكرتي. كنت ألبس ذلك الفستان الأحمر الذي «دوّرته» لي سيّدتي من فستانٍ قديم لبنتها «حسناء». دخلت الصالون على تيسير بيك بصينيّة القهوة. اختلستُ منه نظرة: وجهٌ مورّد، وشاربٌ أشقر مُزجّج. كنت أعرف في سيّدتي تباهيها بابن اختها الذي يتلقّى علمه في مصر. وها هوذا أمامي، يمدُّ يده لتناول الفنجان من الصينيّة، الحقّ، لقد أغضيتُ، ثبّتُّ نظري في الصينيّة، استحياءً. لماذا كان ذلك منك، يا سُعدى؟ يا سعدى؟ لمحتُ في عينيه بريقاً! كان فيهما شيء... كيف أعبر عنه؟ تحسّس، بعينيه، صدري الناهد، أوه، أخجلني! ثم رفعهما الى عينيَّ السوداوين.

«من أين أنت، يا صبيّة؟».

وتولّت سيدتي عنّي الجواب. لم تدعني أتكلّم. لسانها الثرثار لا يستريح. ثمّ أضافت في شكوى:

«إنها تتعبني، يا ابن اختي! لا تحسن العمل، تكسّر. بحاجة الى من يقف فوق رأسها..».

ما أكذبها! جرّحني هذا الادعاء الباطل. لماذا تكذب سيّدتي؟ لماذا تُقلّل من شأني أمام ابن اختها؟ ألا يكفي أنني صانعة تخدم في البيوت؟

كان قد رشف من فنجانه رشفةً صغيرة. ثمّ تطلّع إليّ:

«هل أنت التي صنعت القهوة؟».

أسرعت أجيب:

«نعم!»

وجدتُ، أنا نفسي، في صوتي رقّةً لم آلفها.

«أنت ماهرة في إعداد القهوة».

لم أسمع مثل هذا الثناء، طول عمري!

تدخّلت سيّدتي:

«إنه... البنّ الممتاز!»

«ما اسمك؟»

«سُعْدى»

«حتى اسمك حلو. عربيّ الأرومة!»

ما معنى هذه الكلمة: «الأرومة»؟!...

أمعنتْ سعدى النظر في الشمس تطلُّ عليها من خلال شجرة السرو. لماذا لم تَدَعْها سيّدتها، القاسية، لحظةً أخرى؟ كان ذلك السيّد، العظيم، جديراً بأن يمضي في مساءلتها والثناء عليها... ولكن «رفّة عين» من سيّدتها، حملتها على أن تضع الصينيّة على «الإسكملة» وتسرع في مغادرة الصالون. ثمّ لم تُدْعَ إلى هناك ثانيةً. وهي، على كل حال، انشغلت في المطبخ بتحسُّس صدرها ـ نعم نعم، لقد أحسّت فيه ثورةً ـ وفي تلمُّس خدّيها، اللذين وجدتهما يتّقدان. وقد استرقت، من وراء الباب، نظرات اليه ساعة انصرافه: ما أجمل شبابه! وإذ لمّت الفناجين، أهوت في المطبخ على فنجانه، على الثمالة الباقية في قعره، تلعقها، قبل أن تدفع به الى ماء الحنفيّة..

* * *

ليست جائعة. إنها في هذا الصباح لا تُحسّ جوعاً. والجرس لا يزال يرنّ، معلناً موعد الفطور. و«ماما نوال»، هناك وراء البركة، تسوقهنّ:

«إلى المطعم، يا بنات... الى المطعم».

وظلّت هي في أرض الدّار، في المقعد المواجه للباب: متى يُطلُّ بوجهه المورّد؟

اقتربت المراقبة منها:

«سعدى! هيّا إلى المطعم يا سعدى».

«لا أشعر بالجوع، يا ماما!».

ارتسم الاستغراب على الوجه العطوف:

«هل تشكين شيئاً، يا سعدى؟».

كاد لسانها يشكو: إنه يُطاردني! يطاردني حتّى في المنام! قبّلني من هنا ومن هنا ... عبدو سلام!

المراقبة تُوالي سؤالها، فيما هي تُربّت لها رأسها بحنان:

«هل أنت منزعجة من شيء؟ هل ضايقتك إحداهنّ، يا بنيّتي؟».

كان استحضارها لصور المنام قد أثار في صدرها أشواقاً. أخذتها المراقبة من يدها. وهي تحدّث نفسها: كاد يفعل بي أشياء اخرى، يا ماما! وعصفت في صدرها الأشواق مشوبةً بالخوف! ولكني استغثت... إنه يُطاردني. لماذا لا تُصدّقونني؟

وبغتتها، إذ غدت في باب المطعم، خوفٌ سمّر قدميها، وأوشك أن يشدّها الى وراء. لولا أن سمعت ماما نوال تهمس في أذنها:

«ما بالك، يا سعدى؟».

كادت تُفصح: هنا هنا، يا ماما، أمسك بي عبدو سلام! كنا وحيدين، كنت منعطفة عليه أساعده في مهمّته، فترك كلّ شيء وهمّ بي.. يا ماما، يا ماما!

ثم أطلّت بعينيها على المطعم، فوجدت البنات كلاً في موضعها وراء موائد الطعام. وفكرت، وهي تسير الى أمام: حسن، ليس ثمّة ما يُخيفني، الآن!

التقت عندها نظراتُ البنات. إنها تقرأ في أعينهنّ أشياء!

المراقبة أعطت «الإيعاز» بالبدء بالأكل. أي شهية عندي، اليوم؟

أمسكت بفنجان الشاي. يُذكّرها .. إنه يذكّرها بفنجان القهوة الذي لعقته في مطبخ سيّدتها أم مروان... وبابن اختها الذي يدرس في مصر... وبالبريق في عينيه... أوه، إنه يُخجلها! عبدو سلام، هو الآخر، تحسّس بعينيه صدرها لحظة وقع نظره عليها أوّل دخولها المعهد! إنه يشبه تيسير بيك، في الشباب الفاتن والوجه المورّد والشارب الرفيع الأشقر! كلّما خطر في أرض الدّار رشقها بنظرة تُحِسّ لها لذةً جديدة مضاعفة! إنه يُحدّق في عينيها تحديقاً تُضمِر معنى - باتت تفهم هذه الأشياء - بينما يزداد وجهه توردّاً! أنا جميلة، أنا بنت خمسة عشر، لم لا يخطبني؟ سألت، مرّةً، «ماما وداد»، التي تمحضها حبّاً خالصاً، عن عبدو سلام؟ فعرفت أنه موظف حديث عندهم. إنه «مراسل المعهد»، يحمل أوراقاً الى «قصر العدل» ويعود بأوراق. إنه يأتينا، كلّ صباح، بالمواد الغذائية من المستودع الكبير في «جناح الذكور». إنه فتى طيّب. وأنا بنت طيّبة وحلوة. المراقبات جميعهن: «ماما وداد» و«ماما تيريز»، يقلن إني بنت «آدميّة». مضى عليّ في المعهد أربعون يوماً ولم يشكين منّي من شيء، وشكين من زميلاتي كثيراً. أنا لم أسرق سوار الذهب من خزانة «ستّي أم مروان»! لعل مروان، ابنها، هو الذي سرقه. اتهموني باطلاً وضربوني. قلت لهم: «أنا لست سارقة! ماذا أفعل بسوار الذهب؟» ضربوني، وطلبوا منّي أن أقرّ أين خبّأته! أخذت أستغيث: «أين أنت، يا أبي؟ لماذا وضعتني في هذا البيت؟». كنت أتخيّل، وأنا تحت الضرب، تيسير بيك وحديثه العطوف: «من أين أنت يا صبيّة؟»، «هل أنت التي صنعت القهوة؟». «أنت ماهرة...»... ليته يراني وأنا أضرب. إذن لصدّقني ومنع الاذى عني. كان تبيّن الحقيقة في قولي وأقنعهم ببراءتي من سرقة السوار! ولكن تيسير بيك ما كان له أن يأتي، لأنه عاد من يومه الى مصر...

إنّ أحداً لم يمنع عنّي الأذى... وهم قد هدّدوني بالحبس، بأن يُسلّموني الى الشرطة للتحقيق معي! وقد تساءلت: «أيمكن أن تكون الشرطة أقسى من ستّي أم مروان؟

فطنتْ الى أنها تأكل، وهي لا تدري. وتبسّمت، ويدها ترتفع الى فمها بحبّة زيتون: ههنا آكل بشهيّة! ما ألقاه، من المراقبات الثلاث اللواتي يتناوبن الإشراف علينا، ومن معلّمة الخياطة «ماما فردوس»، ومن المتخصّصة الاجتماعيّة، ومن المدير... كنت ألقى عكسه من ستّي أم مروان ومن ربّات البيوت السابقات. كلّهنّ قاسيات، أقسى من «الشرطة»! وتبسمت ثانية، واللقمة في فمها: لقد وجدتُ الشرطة رجالاً طيّبين. هربتُ اليهم في ذلك اليوم. بعثت بي ستّي إلى البقّال لأشتري لها حاجات صغيرة، وسلّمتني ليرةً ثمنا لها. وضعت الليرة فوق جهاز التلفزيون. وانطلقت من البيت أهيم على وجهي في الطرقات. كانت نزهةً حلوة. كنت أفكّر وأفكّر. فكّرت في كل شيء وفي تيسير بيك: لويراني الآن، لكان له أن يُسائلني ويُحدثني بما يحلوله، فخالته أمّ مروان ليست معنا! وكان لي أن أسأله: ما معنى أن اسمي عربي «الأرومة»؟ الأرومة، الأرومة... قادتني قدماي الى مخفر الشرطة. فاهتمّوا بي، وأنصتوا الى قصّتي. وجدتهم لطفاء جداً. كانوا يُغدقون عليّ فيضاً من نظراتهم، ولكن نظرات تيسير بيك كانت أحلى. وقدّموا لي غداء: «رغيف فلافل» شهياً. ثمّ «هتفوا» الى سيّدي «أبو مروان»:

الصانعة التي تعمل عندكم، سعدى، هي عندنا في المخفر، يا بيك!!».

ترك سيّدي بيته، وأقبل على عجل:

«ماذا تفعلين هنا، يا شقيّة؟!».

أطرقت من خوف، بادىء الأمر، ولم أجب.

«ضاعت! صانعتنا ضلّت الطريق».

وأخذني من يدي. فتمنّعتُ.

«ما بالك يا سعدى؟ حملتني على أن أترك الغداء وآتي الى هنا. ستّك أمّ مروان بالها مشغول عليك».

هنا ذهب الخوف عنّي.

«لا أذهب معه! ستّي أمّ مروان تتهمني بسرقة سوار ضيّعته، وتضربني. لا أذهب اليها».

سألني أحدهم:

«وأين تريدين أن تذهبي، يا سعدى؟».

«ادخل الحبس. أهون لي».

همَّ سيّدي بأن يصفعني:

«أنا دافع «حقّك» لثلاث سنين (والتفت اليهم) هذه البنت سرقت سوار زوجتي!».

جاءتني الجرأة:

«إذن أدخل الحبس.. لأني سارقة!»

«وقحة! وقحة! وقحة!»

* * *

اتخذت مجلسها في المقعد المواجه لباب الدّار: أما آن له أن يأتي؟ وتأوّهت: ولكنه لم يعد يهتم بي! وقرّعت نفسها: آه! أنا، أنا، ألم أشكه إلى الإدارة»؟! قلت لماما وداد: «عبدو سلام يطاردني، يا ماما!»، واستفسرتني، فما أخفيت عنها؟ أوه، لماذا كفّ عن الاهتمام بي؟ كان يحبني، نعم، قرأتُ في عينيه الحبّ! أنا أعرف أنه يُريدني لنفسه، هذه هي الحقيقة: يُريدني أكثر ممّا أريده! ولكنه، آه منه... يخاف!

وتطلعت نحو الباب: لماذا كفّ عن الاهتمام بي؟ لطالما سألت نفسها، فكانت تجيب: لأنه إن أنشأ بينه وبيني علاقةً فصلوه من عمله! حدّثوها بأنه، على شبابه، صاحب «عيلة» يُعيلها. مات أبوه بالأمس، مخلّفاً له إخوةً صغاراً وأمّه. كان طالب مدرسة فاضطرّ الى ترك مدرسته والعمل هنا. يأخذ أوراقاً الى قصر العدل، ويأتي

بالمؤونة اليوميّة من المستودع. تراه أحياناً متأبّطاً كتاباً. سألته أول مجيئها: «ما هذا الكتاب؟!». لمحت في عينيه بريقاً ذكّرها ببريق عيني ابن أخت سيّدتها أم مروان. أجابها، محاذراً أن يسمعه أحد: «كتاب التاريخ لطلاب البكالوريا». لماذا خفّض صوته؟ يمتنع عليه ان يخاطب البنات. وجدته يُعنى بها وحدها، حين لا يهتمّ بغيرها من البنات، آه منه! والبنات يحببنه. فتى وسيم، يدخل الى حيث لا يدخل رجلٌ سواه، عدا المدير. وجدت عنايته بها في ازدياد! وعندما يكلّمها يصطبغ وجهه بحمرة على ما فيه من لون وردي. إنها تتسلّل، في غفلة من المراقبة المناوبة، إلى المطعم وراءه، فتُساعده في تفريغ المؤونة، التي يجلبها، في الصّواني والصحون. تكون معهما الطاهية «أمّ محمود»، المرأة السمينة التي لا تُبصر جيّداً! لا تفهم إلا في السمن واللحم والمرق! لا ترى عبدو سلام وما يصطبغ به وجهه الوسيم من ألوان! تتمنّى لو تتحسّس وجهه! مرّة مدّت يدها اليه، تلامس كتفه. نظر هو الى كتفه، ليرى ما اذا كان ثمّة شيء» على كتفه. أحبّت أن تُداعبه! فلمّا لم يرَ شيئاً، صوّب نظره اليها كانت تُحدّق فيه بشغف! الحقيقة؟ وتبسّمت: لقد أحببْتُه! أحببته! أحببته! والبنات عرفنَ ذلك! اضطرب من تحديقتها فيه. ما أجمل المداعبات! واسرع يُدير نظره صوب أمّ محمود، ليرى: هل المرأة تشهد؟ وأمّ محمود غارقة في فحص السمن والرزّ والشّعيريّة! إنه يخاف الإدارة. وضح لها أنه يخاف. وإنها تحبّه، في خوفه وأمنه! ووضح للبنات أنها تحبّه. ولكن.. واحسرتاه، لقد كفّ من يومئذ عن التحدّث إليها! وكفّ حتّى عن النظر اليها! إنها تعاونه في المطعم، وتبذل في ذلك جهداً، فلا يُبدي اهتماماً. تُرى، أيّ خوف فيه؟ كلّ ما باتت تراه فيه هذا الصمت! تمثال جامد، ذو وجه يتورّد!... تكرهه! بات يطاردها! يطاردها، على نحو غير مألوف، في اليقظة والحلم! لماذا يُداعبها؟ إنها لا تُريده! إنها بنتشريفة...شريفة...

«بماذا تفكرين يا سعدى؟»

صحت على صوت إحداهن.

«بماذا تفكّرين؟».

إنها فاطمة ـ هي ذي تجلس الى جوارها ـ التي قطعت شوارع دمشق متسوّلةً.

«لا أفكّر بشيء».

كانت عيناها مشدودتين الى الباب.

«لا تفكرين بشيء؟! (لمحتْ على شفتي صديقتها الخبيثة بسمة) عبدو سلام .. همْ مْ مْ... تنتظرين مجيئه!!».

سارعت تُعلن:

«أنا .. أنا .. أكرهه!».

ضحكت صاحبتُها:

«خفّضي صوتك لئلا تسمعنا...».

ـ أقول لك: أنا أكره عبدو!

ـ مليح: أنت تكرهينه، ونحن جميعاً نُحبّه! هل زارك الليلة في المنام؟!

فشتمتها:

«يلعنك، فاطمة!».

ـ وجدتك، في الصباح الباكر، تتكلّمين مع نفسك!

ـ أنا؟! (وتفكّرت) وهل سمعت ما حدّثتُ نفسي به؟

«كان الذي يتكلّم شفتاك وعيناك وقسمات وجهك؟ وأمّا صوتك فلا يكاد يُسمع. كنت تُخرجين رأسك من تحت اللحاف، ثم تطمرينه، ثمّ تُخرجينه... وأخيراً علا صوتك!

ـ صوتي هلا؟ طيّب، ماذا قلت؟

ـ تردّدين: شريفة! شريفة! أنا بنت شريفة!

انكرت بصوت جسور:

«أنا لم أقل هذا!».

ـ خفّضي صوتك. ومن أين لي أن

أعلم؟ لئلا تسمعنا ماما فردوس! سمعتُك بأذني، يا سعدى. أنت... (وتضاحكت بوقاحة) إلى متى تظلّين «مجنونة» بعبدو سلام؟ أنت مجنونة بحبّه، يا سعدى! أنت مجنونة! قد يُحيلونك الى «العصفورية»! أصحي على نفسك. هل ... (رأتها تبتسم بمكر) هل داعبك ليلة أمس في المنام، يا سعدى؟

فكّرت في حنق: هي ذي فاطمة تحزر! ولكني لم أحكِ المنام لأحد! اللعينة تعرف.

ـ هل داعَبك في المنام؟ داعبك عبدو سلام؟

أعلنت:

«خسيء!»

فاطمة تتأوّه:

«آه! ليته يُداعبني أنا، فأستسلم له!».

وجدت صوتها يعلو:

«خسيء!خسيء!خسيء!».

ـ أقول يُداعبني أنا، لا أنت! لماذا تغضبين؟ أراك تغارين!

ـ أنا لا أغار!

ـ قولي إنك تُحبّينه! أنت تغارين عليه.

وانفجر في حلقها نداءٌ مذعور:

«ماما! ماما! ماما!....»

واقبلت، ماما وداد والمتخصّصة الاجتماعية. خرجتا اليها من «الادارة» ركضاً!

ـ ما بك يا سعدى؟

ـ ماما .. إنها تعذّبني!

مَنْ منهنّ؟

تلفّتت بحثاً عنها:

«فاطمة، يا ماما... إنها فاطمة «الشحادة»!»

ـ أين هي؟

تجمّعت حولها البنات، متسلّلات من المشغل، متحلقات حول البركة، ثم مالئات ارض الدار. وجئن بفاطمة. انتهرتها ماما وداد:

«ايّ شيء جعلك تغادرين المشغل، يا فاطمة؟»

رأتها تجيب بخوف:

«استأذنت ماما فردوس لأشرب».

ـ وشربت؟ أم أنك خرجت تتعرّضين لسُعدى؟ كم مرّة قلنا لكنّ: دعنها وشأنها! هيا الى المشغل.

* * *

ارتقت الدرج، وهي تفكّر بسعادة. الادارة تُعنى بي! نعم، إنهنّ يعنين بها ويُلبّين رغباتها: تتمنّع عن الطعام، فيترضّينها! تتشكّى من إحداهن، فيدفعنها عنها! تصدف عن تعلّم الخياطة، فيتركن لها حرية دخول المشغل والخروج منه وقت تشاء!

ودفعت باب المهجع، محدّثة نفسهابصوت مسموع:

«وهأنذي، الآن ، أرغب في الصعود الى المهجع، فتسمح لي ماما وداد».

واستدركت، وقد غاضت السعادة في قلبها: ولكنه لايهتمّ بي! إنه يخاف الادارة. يموت رعباً من الادارة! لم يعد يكلّمها! وهي كلّما أمعن في صمته، اشتدّ حبّها له! إنها تكرهه. صامت، أخرس، لا ينطق! مرّةً مدّ يده نحوها. كانت الى جواره في المطعم، تحت. وكان مقرفصاً يفضّ أغراضه التي جاء بها، وهي منعطفةٌ عليه تُساعده. مدّ اليها يده، تلك التي تُمسك خيطاً من قنّب، حدّثت نفسها في ابتهاج: هو ذا يتعلّل بذلك ليتحسّس صدري، فيما تكبّ أمّ محمود على اللحمة تُعاينها!... ولكنّ يده ترتفع الى وجهها، فقالت في نفسها: يريد لمس خدي!.. يده تزداد ارتفاعاً، قالت: شعري! ... ولكنّ اليد تُتابع انطلاقها كالسهم... فإذا هو ـ يالخيبتها! ـ يقصد مسماراً في الجدار قد تراكمت عليه «الخيطان»، فيُضف خيطه القنّبي إليها! كادت، من خيبتها، تصرخ. كادت تهوي

بيدها عليه، وقد عاد يُتابع عمله! تكرهه، نعم. فلماذا لا تشكوه الى الإدارة؟ إنه يتحرّش بها، يريد أن يمتحن استعدادها! يجب ان توصل الأمر الى الادارة.

لقد أسرّت إلي ماما وداد:

«مدّ يده إليّ، يا ماما. قصد أن يُداعبني، فأجفلت، وتراجعتُ إلى الوراء. فلمّا لم يجد منّي استجابة، تظاهر بأنه يريد أن يُعلّق خيطاً على مسمار في الجدار! آه، يا ماما... عبدو سلام رذيل. إنه يتحرّشُ بي!».

اعترضت عليها ماما وداد:

«ولكننا لم نلحظ عليه مأخذاً من هذا القبيل، يا سعدى. من يوم عمله في المعهد وهو يدخل إلينا ويخرج بأدب...».

أكّدت لها (وهل تُخفي الحقيقة عن ماما وداد؟):

«أنت لا تعلمين، يا ماما؟ إنه يُحملق بي! ومن أين لك أن تعلمي؟ إنه يرشقني بنظرات....».

ـ وأين يراك؟

ـ في أرض الدّار، في المطعم.

ـ في المطعم؟! وكيف تدخلينه؟ ألسنا نمنعكنّ من دخوله، في غير أوقات الطعام؟!

اعترفت لها:

إني أتسلّل إليه، دون علم أحد، يا ماما! إني أُساعده! إنه، يا حرام، يتعب! إني أُساعده مع أمّ محمود».

لمحت، هنا، في عينَي ماما وداد، بريقاً:

«سعدى... صارحيني يا ابنتي: ما رأيك بعبدو سلام؟ لا تُخفي عنّي».

أحسّت، الآن، أنها أشدّ قرباً الى قلب ماما وداد:

ـ هو شابّ حلو، يا ماما... الحقيقة: إنه وسيم وطيّب. إني أحبه! ولكنه، ياماما، يُطاردني!

ـ يُطاردك؟!

رأت دهشة تلتمع في عيني المراقبة التي تُحبّها!

ـ نعم. إنه يأتيني في المنام، ويداعبني!

ـ أوه، سعدى! سعدى! أنصحك بألا تُفكّري فيه. ابتعدي عن طريقه، يا سعدى. دعي الرجل في حاله. لسوف نعمد الى إخلاء سبيلك، عمّا قريب. نحن كتبنا الى أبيك في ضيعته، وقد آن له أن يحضُر ليتسلّمك. قاضي الأحداث مهتمّ بأمرك!

فكّرتْ، وهي في ضجعتها على السرير: كتبوا الى أبي! أنا لا أُريد أن أفارق المعهد. وانقلبت الى الجانب الآخر: لماذا تنصحني ماما وداد بألاّ أُفكّر في عبدو سلام؟ ولكني لا أفكّر فيه. جلستْ فوق السرير: إنه هو، هو الذي يستبدّ بفكري! توجّهت نحوالنافذة الشرقيّة: الذنب ذنبه.

ولكني لا أريد أن أخرج من المعهد، الى حيث ينقلني أبي من بيت، الى بيت يدفع أصحابه أجراً أكبر، فأتلقّى من التعذيب قدراً أكبر! وتطلّعت الى شجرة السرو: لن يُتاح لي ، في غير هذا المكان، أن أستمتع بهذه الوحدة. إني أصعد إلى المهجع حين أريد، وأخرج من المشغل حين أريد! فكّرت على نحو آخر: إني، من يوم ما قصصتُ على ماما وداد حديثي، من عشرة أيّام، وهي تزيد في تدليلي وملاطفتي والعناية بي! بل إن الجميع ازدادت عنايتهنّ بي وتغيّرت معاملتهنّ. لقد رفعوا عنّي كلّ قيد ـ ما معنى هذا؟! ـ إلاّ قيداً واحداً وضعته عليّ المتخصّصة الاجتماعيّة في صيغة الأمر: «لا تدخلي المطعم عندما يكون عبدو سلام فيه!».. لماذا؟ لماذا؟ أيخافون عليّ منه؟ أنا بنت شريفة! أنا لا أخاف منه!

وقفت أمام المرآة: ما أجمل عينيك يا سعدى! واسعتان، تسبحان في سواد. كم تحبّهما ماما وداد!

وهبطت بناظريها الى بدلتها، والمشط في يدها تسرّح به شعرها. أيّ فارق بين لبس الخدمة في البيوت، وبين هذه البدلة الكُحليّة النظيفة تلبسها هنا! تخيط البدلات لهنّ ماما فردوس.

وعاودت النظر الى عينيها، تُخاطب نفسها في عزم: حياتك هنا، يا سعدى، سعيدة، أليس كذلك؟ ولكن ما يشغلك، أيتها المسكينة، عبدو سلام. إنه يطاردك. يُطاردك في الأحلام! البنات عرفنَ خبر الأحلام! لن يُخيفني! أنا بنت قويّة. سأبرز له! سأتحدّاه! ما باله تأخّر اليوم؟ لم أسمع، بعد، الرنّة التي يبعثها في جرس الباب. سأتسلّل الى المطعم، بعد قليل، دون أن يشعر بي أحد وأبرز له. قبّلني في المنام من هنا، من هنا، من هنا... لم تكن أمّ محمود معنا! أمسك بي هكذا، هكذا. عانقني، وقبّلني من شفتي، وكاد... آه، كاد يهمّ بي، لولا أن صرخت...

وخاطبت نفسها: لماذا صرخت يا سعدى؟ وأحسّتْ بحسرةٍ: لِمَ استغثتِ؟ لِمَهْ؟ لِمَهْ؟

سمعتْ، هنا، رنين الجرس يصدح في أرض الدّار، رنّة عبدو سلام المعهودة!

فكّرت في تصميم: لن أصدّه، هذه المرّة!

وأسرعت إلى النافذة... تُطلّ.

* * *

امتلأ قلبها فرحاً: هو ذا عبدو سلام في أرض الدّار، يحمل مؤونة اليوم.

أغلقت باب المهجع وراءها في رفق. قلبها يخفق خفقاناً مريعاً. نزلت الدرج بتُؤدة. تُحاذر أن تقع عليها عين. هو ذا يُعاود الحمل من الباب الى المطعم.

هتفت بينها وبين نفسها: يا عبدو! يا عبدو! لماذا أنت هكذا؟ ألا تسمعني؟ لماذا تُطاردني؟ لسوف أشكو أمرك معي الى الادارة، ها!!

غدت في أرض الدار. تلقّطت أنفاسها. دخل المطعم. وبابُ الدار أغلق. خيرٌ لها أن تسير في أرض الدّار صامدة، دون ما خوف أو احتراس. لا خوف، لا خوف! تريد ... إنها تريد أن تذهب الى «دورة المياه». غدت قرب البِرْكة. هو ذا المشغل مُغلق الباب. وباب حجرة الإدارة مُغلق أيضاً. هنّ في اطمئنان: إنها في المهجع، فوق! لا عين تراها. لتدخلْ في هذا الباب، إذن. لا يُخامرها خوف. الباب أغلقته وراءها في هدوء. عبدوسلام، هو ذا، يا عيني عليه! يضع صندوقاً على الأرض. إنه يُدير وجهه نحوها. ينظر اليها. وجهه يتورّد.

«دعي الباب مفتوحاً!».

صاح بلهجة أقرب الى الامر.. فكّرت: ما زال يتكتّم، يُحاول دائماً أن يُخفي عاطفته نحوي. طيّب، لو كان الأمر في يده، أتراه يهتف بي في رفق: «سُعدى، حبيبتي، أنزلي رِتاج الباب، وهلمّي إليّ!».

تدانت منه، وهو يدنو إليها في رضى. ثمّ... رأته ، فجأةً، يقبل عليها! أيّ تبدّل! ولكنه تجاوزها الى الباب، يفتحه! كاد لسانها يعلن: «الى متى، عبدو؟ ».

وقف في الباب لا يبرحه. إنه ينادي:

«أمّ محمود! تعالي، يا أمّ محمود!».

آه، الجبان يستغيث! بدل ان تطلق، هي، صرخة استغاثة! أم أنه ينادي أم محمود لتُعاونه؟

ـ أنا أعاونك، يا عبدو!

قال:

«أقول لك: دعيه مفتوحاً!».

تساءلت غير مصدّقة: لماذا يُظهر اليوم هذه القسوة كلّها؟ وجدت نفسها تُخاطبه في داخلها في رقّة: «عبدو! إني

أراك في منامي!». أتعالنه بما تراه في الليل؟

أقبلت أمّ محمود، حاملةً بين يديها الأواني.

«هأنذي جئتك، يا عبدو. هات لأرى»

قعد القرفصاء. وقرفصت أمّ محمود قبالته.

ـ هذي فاصوليا بيضا.

سألته أمّ محمود:

«أرني لحمة اليوم! كانت لحمة البارحة...».

فكّرت، وهي ترمقهما في حقد: يهملني! يتحدث في الأكل ولا يهتمّ بي! أبصرت الى جوارها طبقةً من الصحون النحاسيّة. عبدو سلام لم يعد يهتمّ بها. تتمنّى لو تتناول واحداً من هذه الصحون، وتهوي به على رأسه.. لم هذا الخوف كلّه؟ لم لا يُسفر؟ قبّلها الليلة الماضية! إنه، الآن، وأمّ محمود يتحاوران. قبلها الليلة الماضية! ما زالا يتحاوران. أكياس تُفرّغ، وأوان تملأ، قبّلها الليلة الماضية. لم لا يُقبّلها، الآن؟ تكرهه! تسلّلت إليه برغم كل مانع. قبّلها هنا، في هذا المكان. ودنت إليه. عندما قبّلها الليلة الماضية، كان في المطعم، هنا، مقرفصاً هكذا، كما هو الآن! وكانت هي الى جواره، كما هي الآن! تُحسّ الآن خوفاً. لم تكن أمّ محمود في الليلة الماضية معهما.

ـ خذ الأكياس معك... تجمّع منها عندنا كثير!

ـ سآخذها.

لا يُحسّان بوجودها. لا يُحسّ هو بوجودها. قبّلها. ترك، في الليلة الماضية، ما في يده، فيما هي منعطفة عليه، وقام ليُمسك بها. قبّلها من هنا.. آه، وكاد ..

أحسّت خوفاً، مزيداً من الخوف.

أمّ محمود تقول، وهي تُغادر المطعم:

«لا تنسَ، يا عبدو: خذ الأكياس معك».

امتلأ قلبها بالخوف. هي وعبدو سلام، وحيدان في المطعم!

هو ذا يمدّ يده نحوها. يمدّها الآن في اليقظة! يمدّها حقيقة! آه، تخافه! تشتاقه حدّقت في يده الصاعدة اليها: ليس فيها الآن خيط! إنه يقصدها، هذه المرّة! أتراه يقصد صدرها؟... خدّها؟... شعرها؟..

أخذت، فجأ، في إطلاق صرخةٍ حادّةٍ مصدوعة، فيما هي ترى الى يده تتّجه نحو... الحائط!

ـ ما بك يا سعدى ؟! ما بك؟! ما بك؟!

أحسّت نداءه اللهيف يتغلغل في أعماقها، حين كان العالم من حولها يستحيل إلى..

* * *

تحاول، على غير طائل، أن تفتح عينيها. إنّ صوتاً، كصوت عبدو سلام لكن مرهقاً ـ يتسرّب إلى سمعها:

ـ أردتُ أن.. أرزم الأكياس... بخيط! مددتُ يدي إلى الحائط، إلى المسمار... كانت هي بجوار الحائط..

فتحتْ، بالجهد، عينيها.

وجدت نفسها مُوسّدة على سرير، في «إسعاف» المعهد!

هي ذي ماما وداد، والمتخصصة الاجتماعية. والمدير أقبل من جناح الأحداث الذكور...

وهو ذا عبدو سلام يحكي، رافعاً يده.. بخيطٍ قنّبي!

لغة الحياة

بقلم:
محمد زكريّا الزعيم

إذا سُئلَ القانون من ربُك؟. أجاب: الأستاذ وجيه، وإذا قيل للمنطق لمنْ أسلستَ قيادَكَ، وبوأتَ عرشكَ، وسلّمتَ رايتك؟ هتف: للأستاذ وجيه!

والأستاذُ وجيه أستاذ القانون في كلية الحقوق.

درسَ القانون فبرعَ فيه، سبرَ أغواره ولملَمَ شتاته، واستقصى مسائله من كلِ شاذ نادرٍ فريد، ثمَّ لخصَ قواعده وحررَ مسائلهُ، حتّى بلغ فيه شأواً واسعاً بعيداً، ومنزلةً تتقاصر دونها الآمالُ، وتعجز عنها الهمم!!

وليسَ هذا كلُّ شيءٍ في شخصِ أستاذنا الهمام! فقد كانَ رجلاً فصيحاً يتخيّر من الألفاظ أوقعَها في السَّمعِ، وأيسرها للفهم، وأليقَها بالمقام.

وإنّهُ لمن أبلغِ النّاسِ في مخاطبة، وأثبتهم في محاورة، حاضرَ البديهة، حادُّ الذّهن، صادقُ الفراسة، كأنّه يحيطُ بما أستجنَّ في الضّمائر، ليس عيّاً في منطق، ولا مُتَلجْلجاً في حديث.

ولكنّه على ما أوتيه من هذه الصفات الفاذّة لم يتخذ المحاماة مهنة او سبيلاً للارتزاق، فقد زهّده في الزّهرة أشواكها، وفي الشهد إبرُ النحل.

فآثر التدريس في الجامعة لينشر المعرفة، وينير الطريق، كان الأستاذ شديد الاعتداد بنفسه، يعرف طاقاتها ويُحسُّ بتفوقها، الى ان فجأه ما لم يكن في الحسبان، فخلّف له جرحاً لا يندمل.

زار الأستاذ الجليل مزرعته ذات ليلة ليتفقدها ويشرف على شؤونها، فما إن وصل اليها حتّى وقف مذهولاً، وقد استبدَّ به الغيظ فغلى في صدره مرجلُ الغضب، فهزَّ خادمه بعنف مستفسراً ما هذا؟

ـ إنّ جارك سلطان التّاجر قد اقتطع من أرضك بضعة أزرع على امتداد المزرعة وضمها الى أرضه!

ـ ولماذا لم تمنعه؟

ـ لقد اقترف جريمته ليلاً يا سيدي. وما أكثر ما يرخي الليلُ سدوله على

منكرات وأهوال!

- ألم تعاوده في ذلك؟

- لقد قال يا سيدي إنّه يحبُك وتحبُه، وإنّ ما قام به هو بما لهُ عندك من حقّ الجوار!

وهنا انتفض الأستاذ وجيه كمن لدغته رقطاء أو مسّته نار.

وخرج لتوه الى مكتب السّلطان العقاري ودفع باب المكتب غاضباً، ودون أن يلقي السّلام صرخ: ما هذا الذي فعلته معي يا سلطان؟ . وكيف تسمح لنفسك أن تغتصب قطعة من أرضي؟

أجاب سلطان:

- بادىء ذي بدء قل السّلام عليكم فما بيننا الا السلام والوئام.

ونهض من وراء مكتبه حاكياً صورة من تهلّل وجهه وانبسطت أساريره.

- أهلاً بك يا وجيه أفندي، أهلاً بك في مكتبك، لقد طال غيابك، سامحك الله ما هذه الجفوة؟ الغائبُ مثلك عاد بهديّة!

وهنا بلغ الغيظ والحنق بوجيه أفندي مبلغه.

- أنتَ آخر شخص يتحدّث عن السلام والوئام، والغيبة والاشتياق! وتريد الآن أن تغير الموضوع؟ أخبرني بربّك لماذا اعتديت على أرضي.

- وهل نجرؤ على ذلك يا رجل؟. فأنت سيدُنا وأخونا، فأنا لم اغتصب أرض غريب، ولكني فُتنتُ بقطعة من أرض أخي وحبيبي وجاري، ولا فرق بيننا أبداً بحال.

- إذا سلّمنا بأخوتنا المزعومة ألا يستوجبُ ذلك الأخذ بأدب الاستئذان؟

- الكرامُ لا يعطون بسؤال! فخيرهم منشور، وبرّهم مبذول!!

هنا بدأ وجيه أفندي يبتلعُ مرارة الهزيمة، فقد بدأ يشعر أنّ ذلك المخادع الشاطر ينتزع ريشة من جناحيه القويتين مع كلّ سؤال وحوار، ولكنه أصرّ على المتابعة والاستمرار.

- أنا لا أطلبُ منك شهادة حسن سلوك أريد أستعادة ما أخذت؟.

- الكرامُ لا يستردون ما وهبوا؟

وهنا ضرب وجيه أفندي كفاً على كف من شدّةِ ما بلغ به من الحنق، ثم التفت اليه:

- عجيب أمرك؟.. ومنذا الذي جاد لك بقطعة الأرض؟ وهل الاغتصابُ في مبدئك صنو المنحة والإكرام!

- ألم أقل لك إن الكرام خيرُهم منشور وبرّهم مبذول؟ فالغصن المثمر لا يُستأذن عند الجود والعطاء، وعلى كلّ حال فأنا شاكر لك، فبفضل ما جدت به من أرضك تسنّى لأرضي أن تكون مربعاً متساوي الأضلاع كقطعة من الحلوى.

- وهل تنسيق ارضك، واتخاذ شكلها المناسب على حساب الآخرين؟

- لا، لا ، أنت لست (كالآخرين)، أنت منّا وفينا.

- حسنٌ هذا! فما دمتُ منكم - كما تقول - فلماذا لا نعكسُ الآية فأسوّي أرضي على حساب أرضك، وليس بين الكرام من حساب؟

- سامحك الله يا وجيه أفندي، الكبيرُ يعطي الصغير، أم الصغير يعطي الكبير؟

هنا أدرك استاذنا الكبيرُ أنه لاجدوى من النقاش مع ذلك الخبيث الماكر.

فبادره بالقول:

- سأرفع شكواي الى القضاء.

- آه منك يا أخي، وهل يشكو الأخ أخاه؟

حينئذ رأى الاستاذ انه لا بد من تغيير لهجة الحوار بما يناسب مخاطبه، فلعلّ ذلك أجدى نفعاً وأنجع دواءً.

- لن أشكوك، ولكني سأحطم رأسك!

- تريد رأسي؟ .. فلتكرم يا جار تكرم!.. هاك جسمي كله لك، افعل به ما تريد، فأنا طوع أمرك، وبين يديك.

- اذن سأحطم جسمك كلّه.

- جسمي وقلبي كلاهما لك! هل نسيت سلطانك علينا، ومكانتك بيننا يا وجيه افندي؟

عندها نفد صبر الاستاذ، فهمّ

بالهجوم على سلطان ولكنه تماسك وتثبّت، واتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة من ذلك النّفاق العجيب.

- البشرى البشرى يا جيران، لقد أضاء الكون، ما اجمل ابتسامتك يا جاري العزيز، كيف تضنُّ علينا بمثلها فلا تجود بها إلا لماماً؟

- يا رجل استح أنا لا ابتسم رضىً، ولكن هزءاً وسخرية!

- قل ما شئت لن أعتب عليك! فضرب الحبيب زبيب. جرح الأحبة عندي غير ذي ألم.

- والله سأستنجد بالشرطة وأجرّك في المحاكم.

- أنتَ بالذات لا تفعلها لانك كريم، والكريم يعفو عند المقدرة.

- طيب لنفرض أنكَ حين اغتصبت أذرعاً من أرضي طمعتَ في كرمي، ألا يجب ان تشكر من أحسن اليك وتعتذر لمن أسأت اليه؟

- معك حق فأنا حقيرٌ، ولا أستأهلُ احترامك، ومع ذلك فهأنذا أعتذرُ إليكَ وأطلبُ الغفران.

- ومن قالَ لك بأنّي سأقبل اعتذارك؟

- لا، لا، أنتَ أكبرُ من ذلك، فليسَ من شيمة أمثالك ردّ معتذرٍ، أو عدم مسامحة مخطىء.

هنا أُسقط في يد الاستاذ، فها هو ذا يشعر بالعجز، ويقرّ بالهزيمة بعد أن أعيته الحيلة وألجمته الحجّة. فأطرق ملياً واستسلم لتفكير عميق، فقد طرأ على المسألة ما ليس منها، وما عاد الأمر أرضاً مقتطعةً، بل كرامةً مهدورةً ونصراً مهيناً، لصغير على كبير.

ولاحظ التّاجرُ ارتباك الاستاذ، فأعاد الهجوم بمنطقه التّجاري ولغة الشّطار المفعمة بالرّياء والنّفاق، ولم يترك لخصمه أن يستردّ أنفاسهُ، فقطع عليه تفكيره قائلاً:

- في هذه المناسبة السعيدة سأقيم مأدبةً كبرى، أدعو اليها كبار التّجار والوجهاء والأعيان، ليشهدوا كرم وفضل وجيه بيك.

ثم التفت الى عصابة الحضور والمتجمهرين من سكان الحي.

- ألا تريدون أيها السادة أن تحضروا الحفلة الكبرى لتتعرفوا سيرة سيّدكم العطرة؟ فلا يليق بالجود أن يخفى، ولا يحسن بالسّيرة الحسنة أن تطوى، فلا يتأسّى بها الآخرون! وأنت أيها السيد الطيب إيّاك ان تتغيب عن المأدبة!

- أفٍّ منك يا رجلُ أغبيٌّ أنت أم متغاب؟! من قال لك إنّي آثرتك بالأرض، ومن قالَ لك بأني سأدخلُ بيتك؟

- إذن نحن سندخل بيتك وستكون المأدبة - حسب مشيئتك - عندك لا عندي، حينئذٍ سيعرف الجميع أنّ وجيه بيك كريم معطاءٌ، وهو لا يقبل على كرمه جزاءً ولا شكوراً!

ثم التفت الى الحاضرين:

- ما رأيكم أيها الرجال بعشاء فاخر في بيت الاستاذ الهمام؟

فعلا الهتاف: نعم.. نعم.. ما أعظمك وما أعظم أستاذنا وجيه بيك.

وتناوحت عبارات الإطراء من كلّ حدبٍ وصوب ابتهاجاً بالمأدبة وبالصّيد الثمين.

- رحم الله أباك يا وجيه بيك، فقد كان أبا المساكين.

- هذا الشّبل من ذاك الأسد.

- أهلُ الكرامات لهم علامات.

-و...و....و....

وأصمّ وجيه بيك أذنيه بأصبعيه، وهو يعجب من أولئك القوم الذين ساقتهم المطامع، وألّفت بينهم المخالي والمعالف.

وهكذا أسقط في يده، فلم يحر جواباً!!

وخرج الأستاذ الكبير كاسف البال، محطّم النفس، مهيض الجناح. (بعد ان فلّ سيفاه سيف المنطق، وسيف القانون).